منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2409) السنة التاسعة - الاربعاء (29) شباط 2012

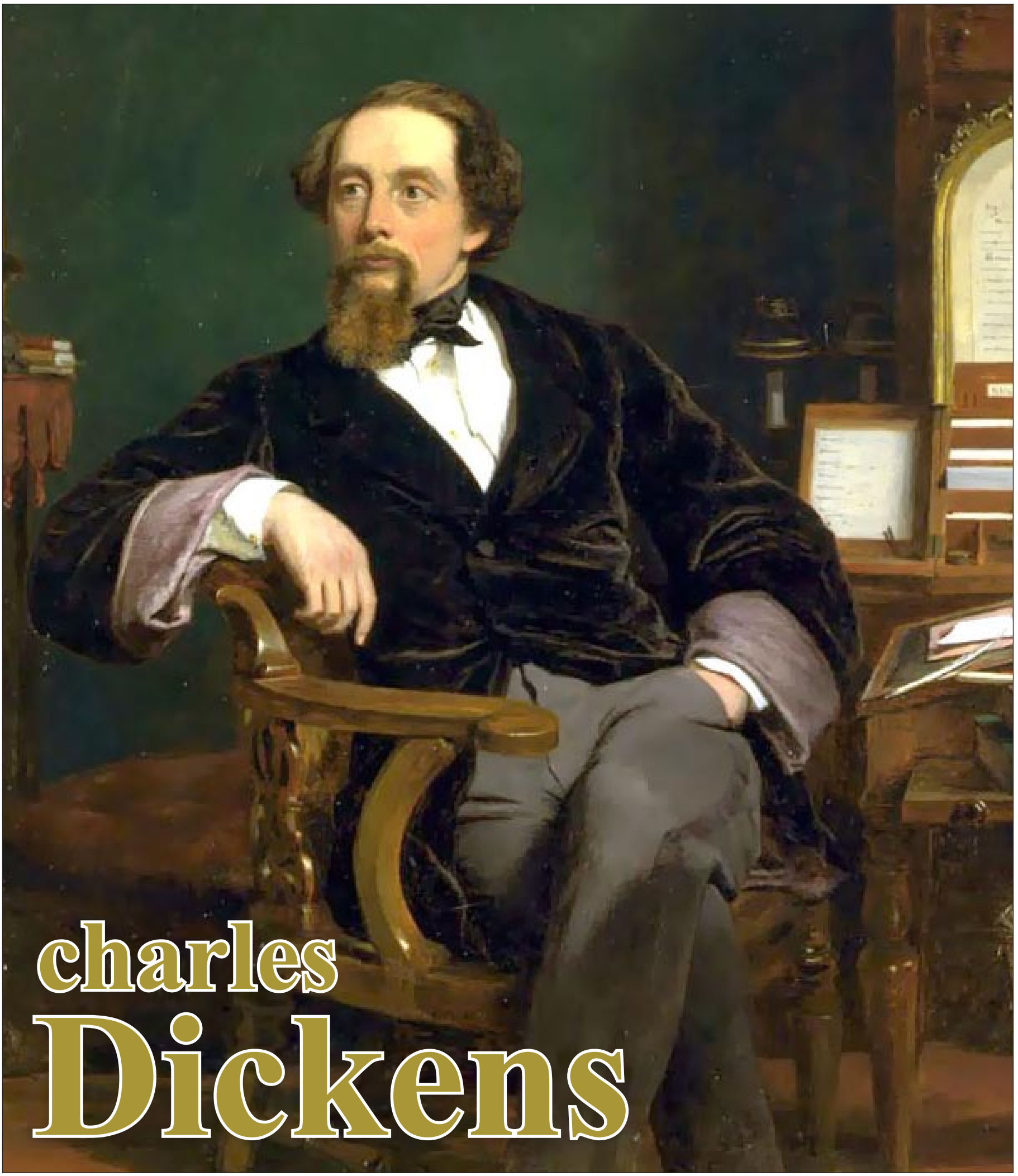

charles Dickens

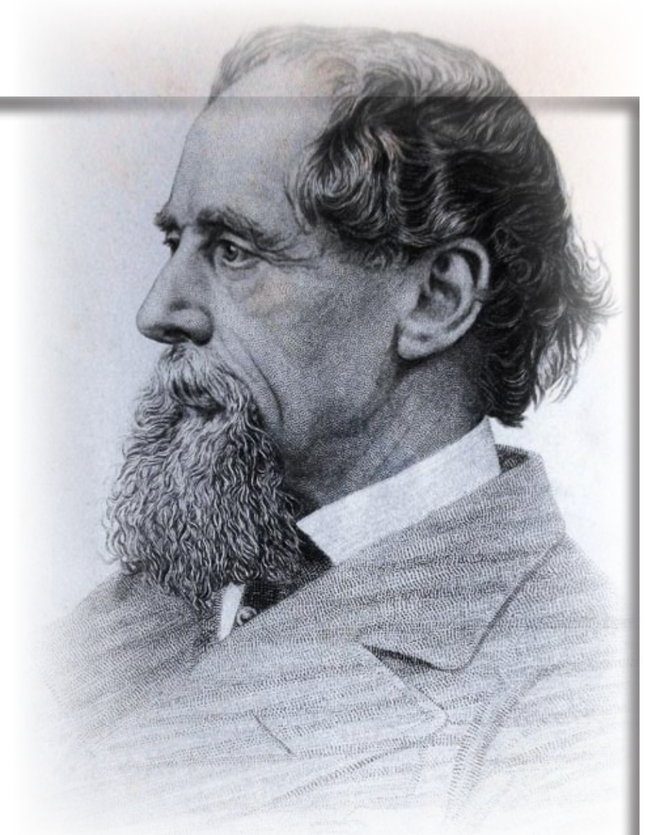

ولد تشارلز ديكنز في لاندبورت – هامبشاير يوم ٧ شباط ١٨١٢ لوالدين هما جون و اليزابيث. كان تسلسله الثاني بين ثمانية اشقاء. بعد ان قضى السنوات الثلاث الاولى من حياته في بورتسموث- هامبشاير، انتقلت العائلة الى لندن عام ١٨١٥.

كانت سنواته الاولى بسيطة و سعيدة رغم انه كان يعتبر نفسه "ولدا صغيرا جدا لا يلقى العناية اللازمة". كان يقضي وقته خارج المنزل، لكنه كان ايضا يقرأ بنهم خاصة روايات المغامرات للكاتب توبياس سموليت و هنري فيلدنك. في ما بعد تحدث ديكنز عن ذكريات طفولته القاسية و عن ذكراه الشبه تصويرية عن البشر و الاحداث التي استخدمها في كتاباته.

ترجمة عبد الخالق علي

تشارلز ديكنز السنوات المبكرة

اودع جون ديكنز – الذي كان يعيش فوق مستواه – السجن في ساوثوارك في لندن عام ١٨٢٤. بعد فترة قصيرة انضمت اليه بقية العائلة – ماعدا تشارلز البالغ ١٢ عاما- الذي نزل مع صديقة العائلة اليزابيث رويلانس في مدينة كامدن.

بدأ ديكنز يعمل لعشر ساعات في اليوم في مخزن للاصباغ بالقرب من محطة قطار تشيرنغ كروس الحالية. كان يكسب ستة شلنات بالاسبوع، ظروف العمل السيئة تركت لديه انطباعا عميقا و اثرت فيما بعد على قصصه و مقالاته، و شكلت اساسا لولعه بالاصلاح الاقتصادي- الاجتماعي و اصلاح ظروف العمل التي يقع عبئها على الفقراء. فيما بعد كتب يقول "كيف اصبحت منبوذا بهذه السهولة في تلك السن".

بعد مرور اشهر قليلة توفيت جدته لابيه اليزابيث ديكنز تاركة لابيه مبلغ ٤٥٠ باون، و اطلق سراحه من السجن، و اول ما فعله هو تسديد الديون التي عليه.

رغم ان تشارلز كان يدرس في اكاديمية ولنغتون شمال لندن، فان والدته لم تقطعه عن العمل في مخزن الاصباغ مما جعل تشارلز يعتقد بوجوب سيطرة الاب على العائلة و ان واجب الام هو في محيطها داخل البيت. لم تكن اكاديمية ولنغتون بمستوى جيد – كثرة الدروس، التدريس العشوائي، ضعف الانضباط، الوحشية السادية التي يتميز بها مديرها، كثرة المرضى و البيئة المتهالكة – كلها تتجسد في مؤسسة السيد كريكل في رواية ديفيد كوبرفيلد. ثم عمل تشارلز كاتبا بسيطا في مكاتب قانونية من مايس ١٨٢٧ حتى ت٢ ١٨٢٨. و كان في وقت راحته يتعلم الطبع على الالة الكاتبة، لذلك ترك العمل ليعمل مراسلا على حسابه، يكتب عن الاجراءات القانونية، و استمر على ذلك لمدة اربع سنوات.

في عام ١٨٣٠ التقى ديكنز بحبيبته الاولى ماريا بيدنيل، التي تمثلها شخصية دورا في ديفيد كوبرفيلد، الا ان والديها رفضا تلك العلاقة و انهياها عن طريق ارسالها للدراسة في باريس.

الصحافة و الروايات المبكرة

في عام ١٨٣٣، نشرت اولى قصص ديكنز "عشاء في ممشى الحور المجلة الشهرية "دوريات لندن". في العام التالي استأجر غرفة في حانة فرنيفال و اصبح صحفيا سياسيا يكتب عن الجدل البرلماني و يسافر عبر بريطانيا لتغطية الحملات الانتخابية لصحيفة "كتابات الصباح". عمله الصحفي شكل اول مجموعة له من الاسكتشات نشرت في ١٨٣٦، و قاد ذلك الى اول رواية له "اوراق بيكويك" في آذار ١٨٣٦. و استمر في المساهمة و تحرير الصحف خلال عمله الادبي. في ١٨٣٦ وافق تشارلز على العمل كرئيس تحرير في صحيفة "بينتلي ميسيلاني" و بقي يشغل هذا المنصب لثلاث سنوات حتى اختلف مع صاحبها. في نفس الوقت استمر نجاحه كروائي، فكتب "اوليفر تويست ١٨٣٧-٣٩"، "نيكولاس نيكلبي ١٨٣٨-٣٩"، "محل الفضول القديم"، و اخيرا "بارنابي رادج: حكاية عن اعمال الشغب ١٨٤٠-٤١" كلها نشرت على شكل سلسلات شهرية قبل ان تتحول الى كتب. خلال هذه الفترة كان تشارلز يحتفظ بغراب اسمه كريب، قام بتحنيطه عند موته عام ١٨٤١ (موجود الان في المكتبة الحرة في فيلادلفيا).

في الثاني من نيسان ١٨٣٦ تزوج تشارلز من كاثرين توموسن هوغارث (١٨١٦-١٨٧٩) و هي ابنة جورج هوغارث رئيس تحرير "كتابات المساء". و بعد شهر عسل قصير في "كينت" عادا الى بيتهما في بلومزبري. انجبا عشرة ابناء هم:

- تشارلز كاليفورد بوز ديكنز – الذي عرف في ما بعد تشارلز ديكنز جي ار (رئيس تحرير "على مدار العام" و مؤلف "قاموس ديكنز عن اندن ١٨٧٩").
- ماري ديكنز
- كيت ماكريدي ديكنز
- والتر لاندور ديكنز
- فرانسيس جيفري ديكنز
- الفريد دورسي تينيسون ديكنز
- سيدني سميث هاليماند ديكنز
- سير هنري فيلدنغ ديكنز
- دورا آني ديكنز
- ادوارد ديكنز

عاش ديكنز و عائلته في ٤٨ شارع دوتي – لندن (مقابل ايجار يبلغ ٨٠ باونا في السنة) من ٢٥ آذار ١٨٣٧ حتى ت١ ١٨٣٩. و انتقل للعيش معهم شقيقه الاصغر فريدريك، و ماري شقيقة زوجته كاثرين البالغة ١٧ عاما. كان ديكنز متعلقا جدا بماري حتى انها توفيت بين ذراعيه بعد معاناة قصيرة مع المرض عام ١٨٣٧، و اصبحت شخصية مألوفة في العديد من كتبه، و قد صور موتها بموت "نيل" في "محل الفضول القديم".

في بداية كتابه عن السير الادبية لكبار كتاب العصر الفكتوري أعلن ليون ستراشي بأن (تاريخ العصر الفكتوري لن يكتب أبدا بصورة نهائية) ليس بسبب نقص في المعلومات في سجلاتنا التأريخية بل (بسبب غزارة المعلومات المتوفرة عن هذه المرحلة) وهذا ينطبق بصورة خاصة على حياة ديكنز التي غالبا ما أعتبرت المحور الذي كان العصر الفكتوري يدور حوله.

فابتداءً من الاخطاء الإملائية في شهادة ميلاده وأنتهاءً بدفتر الملاحظات التي تركها لاطفاله في حالة استخدامهم لغة سيئة، فأن كل وثيقة زاخرة بالحقائق وكل حادثة شاردة تحولت إلى حقيقة شخصية مجسدة، ومثلما يحدث مع شكسبير، المنافس الوحيد له على لقب الكاتب المفضل في بريطانيا، فأن الكتب والابحاث والدراسات تضاعفت إلى درجة لا يمكن لأحد ان يقرأها جميعا، اما الكتابة عنه فأشبه بمحاولة قطع حوت ضخم بسكين صغير، ومع ذلك فأن غزارة المعلومات المتوفرة عن ديكنز أو صعوبة الكتابة عن شكسبير لا تجعلنا نكف عن المحاولة،

الوجوه المتعددة لـ تشارلز ديكنز

الصحيفة: الديلي تلغراف
الكاتب: روبرت دوغلاس

في كتابي الجديد عن سيرة ديكنز حاولت ان اشرح كيف انه وفي غضون اقل من خمسة اعوام تحول من صحفي مغمور إلى اشهر روائي في العالم، وهو جزء من موجة من الكتب والدراسات الوثائقية والافلام المتبناة عن رواياته وفيلم عن علاقته السرية والطويلة الامد مع الممثلة آلين تيرنين، ستظهر وتعرض في ٢٠١٢ بمناسبة احتفالية مرور مائتي عام على ميلاده، صورة ديكنز ستشيع في كل مكان ولن يعود بالأمكان الفرار عن حضوره، ومع ذلك فان هذه الظاهرة الثقافية ليست جديدة، فبالعودة إلى تاريخ مبكر مثل ١٨٣٦ وعندما كان ما يزال في الرابعة والعشرين، فأن النجاح الهائل لبيكويك بيبرز Pickwick Papers كان يحتم عليها ان تخوض منافسة شديدة مع عدد من الروايات التجارية والمقلدين الادبيين الحريصين على تحقيق الارباح، وخلال سنوات قليلة وفي تعاقب مثير للفضول للعلل والمعلولات، حتى الشوارع التي الهبت خيال ديكنز في ايامه الاولى تحولت مشاهد قريبة الشبه بما كان يصور في رواياته، فرانسيس باركمان كتب عام ١٨٤٣ (عندما وصلت لندن شعرت بأني كنت هنا من قبل، وجدت بان سائق العربة والإعلانات المتجولة ومئات الاشخاص كانوا يجسدون شخصيات ديكنز، فمع كل لمحة كوميدية و التواء مرضي، كانت كتاباته قد حولت العالم إلى عالم ديكنز) حتى الاميون لم يكن بامكانهم تجنب كاتب كانت صوره تطل من واجهات كافة المحلات التجارية، والذي كان يمكن مشاهدته خلال احدى جولاته الحيوية في لندن، يظهر في اكثر المناطق قدما من لندن وفي اسوأ الاحوال الجوية، وكأنه يطارد احدى شخصياته او يحاول ان ينفض عنهم غبار الزمن، ووفق الصورة الضخمة التي كان فيها ديكنز يلوح في خيال الجمهور، والشهرة التي تحيط به الشائعات التي تطارده، كان هناك دائما سحر خاص للرجل الكامن خلف كل تلك القصص، ولكن حتى في هذا المجال كان ديكنز يظهر مقاومة جليلة لتبسيطه وشرحه، كان ديكنز يكشف عن مواهبه الفذة في التهرب من التحديد الأدبي Literary Escapologist يستعصي على الفهم مع كل سيرة ادبية، ولهذا السبب ربما كان كتاب السير يلومون ديكنز لأنه اخفق في ان يعيش وفق الصورة المثالية التي كانوا يحملونها عنه، معاصريه الذين كانوا يشعرون بالقلق لأنه لم يكن الجنتلمان المثالي، او الهجمات الاخيرة عليه لانه لم يكن زوجا مخلصا او ابا كامل الاوصاف، فقد كان من السهولة انتقاده بأستمرار بدلا من الإعجاب لان سلوكه لم يكن يطابق توقعاتنا ولأنه كان يجردهم من الافكار التي كونوها عنه، وهو يكشف على نحو ما عن المشكلة الاساسية في كتابة السيرة الادبية، وهي ان ليست هناك سيرة مهما بلغت من الدقة يمكن ان تكون متكافئة مع تعقيدات الحياة الحقيقية، كل سيرة ادبية تورد بعض التفاصيل وتتجاهل تفاصيل اخرى، منتجا سردا ينتظم وفق سياق الطفرة والتكريس a narrative rhythm of skipping and lingering

وهذا قريب جدا من اسلوب الرواية أكثر من التعاقب غير المترابط والارتباك اللذين يسودان الحياة اليومية، ثاكري سيبقى سيد الاسلوب الخاص بوصف شيء واحد ولمرة واحدة، ولكن معظم الناس يجدون انفسهم بأنهم يعيشون قصصاً مختلفة في وقت واحد، وكما اوضحت فرجينيا وولف في اورلاندو (السيرة الادبية ستعتبر كاملة إذا ما نجحت في تصوير ستة او سبعة جوانب من الآف الجوانب التي يمتلكها ذلك الشخص) ولكن الحقيقة هي ان هناك قلة من الاشخاص من يستطيع ان يعيش عدة جوانب مثلما فعل ديكنز الذي كان يستمتع بمنح نفسه مختلف الالقاب وحريصا على توجيه شهرته في عدة اتجاهات ممكنة، ومحاولة تقليصه اشبه بوضع الابهام على نقطة من الزئبق، المحاولات الاولى في ١٨٧٠ جاءت بعد مرور فترة وجيزة فخلال العام الاول بعد وفاته تم تجاهل التعليمات الصارمة في وصيته في (الا يكون هناك مبرر لاصبح موضوعا لأي نصب او تذكار من اي نوع كان) من قبل الجميع، ولكن لم تمض فترة طويلة حتى بدأت السير الحقيقية في الظهور بعدما واجه كتاب سيرة ديكنز ليس بسبب التحديات المتمثلة في فرادة الموضوع بل ايضا بسبب ما كان يحيد به من ضباب، والفرصة الاولى التي توفرت لترسخ صورة واضحة في اذهان الجمهور جاءت بين الاعوام ١٨٧٢ – ١٨٧٤ عندما نشر صديقه ومستشاره لفترة طويلة جون فورستر كتاب (حياة تشارلز ديكنز) وكما قال عنها لي هينت (سيرة تشمل على حياة وروح ما لا يقل عن خمسين شخصا) وقد اقترب فورستر من شرح ما كان يكمن خلف هذه الوجوه المتعددة بقدر ما اقصى نفسه عن الصفحات وسمح لديكنز ان يتحدث عن نفسه، وفي فقرات من البوح الذاتي يكشف كيف بعد اعتقال والده بسبب الديون اضطر للعمل في مصنع معتم كان مسرحا للفئران قرب نهر التايمز، هذه التجربة القت بظلالها الكئيبة والموحشة على كل ما اصابه به في السنوات اللاحقة، ولم تكن فقط تلك الاحداث التي يصفها بأنها (التي صنعت مني ما انا عليه) ويستنتج ديكنز ليس فقط بأنها صنعت منه رجلا ذا طموحات خارقة ويستهين بالفشل بل ايضا المسارات العديدة التي يمكن ان يسلكها شخص واحد في نفس الوقت.

تشارلز ديكنز ينسى حبه الأول..

طفولة مسحورة بقصص ألف ليلة وليلة

تحتفل مدينة (برودستيرز) الانجليزية في نهاية شهر حزيران من كل عام بذكرى زيارة الروائي تشارلز ديكنز وإقامته فيها. و(برودستيرز) مدينة ساحلية صغيرة قلما يعرفها العالم الخارجي إلا أنها تشكل أهم المحطات الأبداعية في حياة ديكنز، إذ أقام فيها مايقرب من عقدين من الزمن وأستلهم من أجوائها أشهر رواياته. وقد تعرضت هذه المدينة في الماضي لفزوات (الفايكنغ) القادمين من الأصقاع الأسكندنافية، وهي اليوم واحة هادئة تمتزج فيها العراقة بالبساطة، ويتجلى تاريخها (الديكنزي) بقوة في حاضرها، حتى يخيل للزائر أن الروائي الكبير مازال يقيم فيها وأنه قد يطل في أية لحظة بلباسه الفيكتوري ولحيته الطويلة!

وحيدة المقدادي

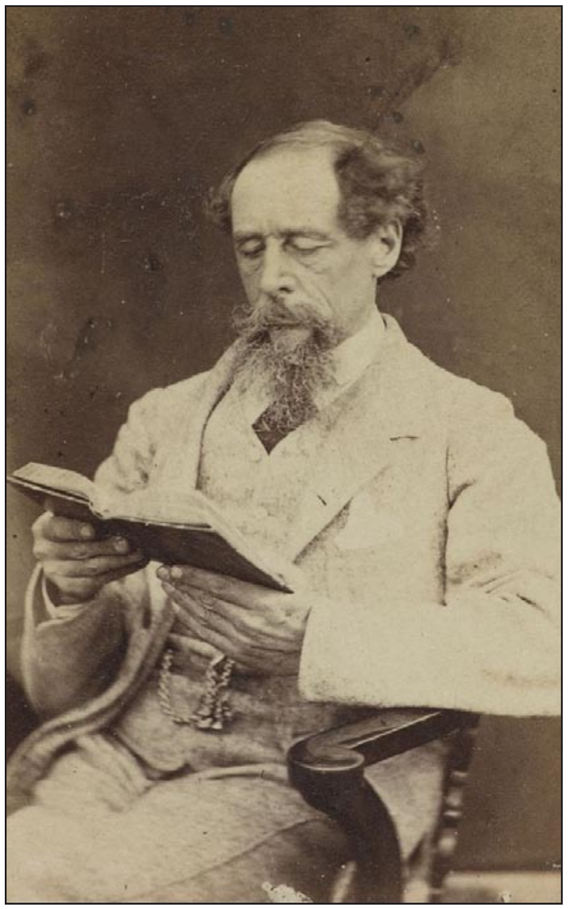

بدأت إقامة ديكنز في (برودستيرز) من عام ١٨٣٩ ولغاية عام ١٨٥٩. وكان يجد في مناخها المعتدل وهدوئها الحالم واحة للتأمل والكتابة، إضافة الى ماتشتهر به من ينابيع وعيون صحية جعلته يشيد بها ويعتبرها (المنتجع الأول في انجلترا) وهو وصف مازال يردده بفخر سكانها. إلا أن إقامة ديكنز في المدينة، على مايبدو، جذبت اليها حركة ونشاطا لم تألفهما، فغدت مقصدا للباعة والحرفيين والصيادين الذين أصبحت اصواتهم تقلق سمعه وتحول بينه وبين ممارسة الكتابة، وهو ما أفصح عنه في احدى رسائله الموجهة الى صديقه وكاتب سيرته جون فورستر..

كتب ديكنز في (برودستيرز) عددا من أشهر رواياته منها رواية (نيكولاس نيكلبي)، وقد أصبح البيت الذي أقام فيه أثناء كتابتها جزءا من فندق (ألبيون هوتيل) الموجود بهذا الأسم حاليا. وكتب فيها أيضا رواية (ديفيد كوبرفيلد) الشهيرة، حيث أستقى من شخصية صاحبة البيت (ماري بيرسون ستراتود)، الشخصية الرئيسية في الرواية. وقد أصبح هذا البيت متحفاً مهماً يعرف اليوم بـ (ديكنز هاوس) ويقع على بعد أمتار من فندق (ألبيون هوتيل) المشار أليه.

وكتب ديكنز في(برودستيرز) روايته الأخرى (بليك هاوس) وهو أسم البيت الذي أقام فيه خلال كتابتها والذي لا يزال يرتفع شامخا فوق الأخاديد الصخرية المحاذية للشاطئ. هنا كان يواصل الكتابة في الغرفة المشرفة على البحر لثماني ساعات يوميا. ومع أن الأسم الأصلي للبيت هو (فورت هاوس) نسبة الى الزقاق الموجود فيه، إلا أنه بمرور الزمن اكتسب أسم الرواية واصبح يسمى حاليا (بليك هاوس). وقد تم الأبقاء على البيت كما تركه ديكنز، بما في ذلك شجيرة الجيرانيوم ذات الزهور الحمر الأثيرة الى نفسه.

كذلك كتب ديكنز في (برودستيرز) روايته الأقل شهرة والأكثر سوداوية والمسماة (دكان العجائب القديم) الصادرة في عام ١٨٥١. وقد أعيد تقديم هذه الرواية منذ عدة أشهر في عمل تلفزيوني جديد أنتجته قناة (أ.تي.في) البريطانية.

إبن الشعب

اينما يتوجه الزائر في (برودستيرز) تستقبله ابتسامات الأهالي العفوية وترحابهم. وتراهم يتحدثون عن كاتبهم الشهير كما لو أنه لايزال معهم، ويحفظون الكثيرمن التفاصيل عن أبطال رواياته، بل وحتى حياته الزوجية وعلاقاته الأجتماعية. ولكن يبدو أنهم لايُلمون بشيء يذكرعن جذور ثقافته الأدبية وقراءاته لقصص الف ليلة وليلة وتعلقه بها منذ طفولته، الأمرالذي كان له الأثر الكبير في شحذ خياله وإذكاء موهبته وتعليمه أسلوب السرد المتسلسل المشحون بالترقب الذي تتسم به قصص ألف ليلة، والذي يعد من أهم أسباب شهرته وتعلق القراء بروايات!

وقد اعتاد إدارة المهرجان، والذي يحتفل سنويا في خيمة على ساحل البحر، مظهر السيدات والفتيات العاملات في السوق بلباسهن الفيكتوري وقبعاتهن المكللة بالورود والأرياش. ومن هؤلاء المسز (جوون بيام) الخبيرة بالأزياء الفيكتورية. ونكتشف من خلال الحديث معها وجود علاقة كبيرة بين أناقة المرأة في العصر الفيكتوري وبين التقسيم الطبقي السائد آنذاك. كما نكتشف بعض الملامح المشتركة بين التقاليد الانجليزية القديمة وبين تقاليدنا العربية! توضح المسز بيام قائلة: "كانت التقاليد الأجتماعية تحث على ظهور المرأة بمظهر الحشمة والوقار سواء فيما يتعلق بتصميم الفستان أو تصفيف الشعر. فكان يحبذ إرتداء الفساتين الطويلة ذات الأكمام الكاملة وعدم الظهور بشعر منثور أو حتى مقصوص، لا بل كان يتعين على المرأة التحفظ في الكلام والضحك والأختلاط مع الغرباء... أما من الناحية الجمالية فكان يحبذ ان تحافظ على بياض بشرتها وتبتعد عن أشعة الشمس، ومن هنا ظهرت فكرة إرتداء قفازات الدانتيل الطويلة، وأستعمال المظلة المطرزة الصغيرة، وكلاهما يعتبرمن مكملات الأناقة الرئيسة بالنسبة لنساء الطبقة العليا في المجتمع الفيكتوري". وتضيف السيدة بسام قائلة: "كان لباس سيدات الطبقة العليا يتألف من العديد من القطع لأن زيادة عدد القطع يدل على علوّ المنزلة الاجتماعية، اما سيدات الطبقة الفقيرة فليست لديهن بطبيعة الحال القدرة على إقتناء قطع كثيرة، فكان لباسهن بسيطا ومختصرا".

ديكنز والمرأة

قد لا تروق صورة المرأة في أدب ديكنز للمنادين اليوم بالمساواة بين الجنسين. وتدلل كتب السيرة والأبحاث على أن ديكنز استقى أراءه حول المرأة ودورها في المجتمع من شخصيتين أساسيتين في حياته، هما والدته (اليزابيث) التي كانت مثالا للمرأة المتفانية في خدمة أسرتها و توفير مستلزمات الراحة والاستقرار لها، على الرغم مما عانته من اسراف الزوج وسوء تدبيره ودخوله السجن لعجزه عن تسديد الديون؛ أما الشخصية الثانية في حياة ديكنز فهي زوجته (كاثرين هوغارث) التي انجب منها أولاده العشرة.

تعرض ديكنز لانتقاد من قبل العديد من الباحثين الغربيين بسبب ماأعتبروه موقفا سلبيا من المرأة. فهو يضع المرأة التي تحاول الخروج عن دورها التقليدي في مكانة متدنية. ولا تستعيد أهميتها عنده إلا بالعودة الى الدور المنزلي. وفي تحليلها لصورة المرأة في رواية ديكنز (أمال كبيرة) تقول الباحثة لوريت راسيت:

"يتضح من رواية (أمال كبيرة) أن ديكنز يفضل النموذج المنزلي للمرأة. ومع أنه يقدم للقارئ أحيانا نماذج نسائية متمردة وأكثر تعبيرا عن ذاتها، وربما مستبدة، إلا انه يجعلهن يستسلمن في النهاية ويعدن تائبات الى الوظيفة المنزلية، ليثبت للقارئ أن المرأة لكي تحظى بأحترام المجتمع عليها أن تكون زوجة وأماً". وتضيف الباحثة (راسيت) قائلة: "إن ديكنز يجعل من الأنسة (هافيشام) في رواية (أمال كبيرة) شخصية سلبية تجسد الكآبة والذبول لكونها غير متزوجة، ولكنه سرعان مايمنحها شيئا من الفيئة الأجتماعية بعد تبنيها لـ (ستيلا). فالمرأة عند ديكنزلاتكسب الاحترام إلا من خلال تقديم الخدمة للآخرين".

يُتهم ديكنزأيضا بأنه لم يكن عادلا مع زوجته (كاثرين) إذ أقدم على تطليقها بدعوى التقصير في تربية الأولاد بعد عشرين عاما من الزواج، برغم أن الطلاق في تلك الحقبة كان يشكل وصمة اجتماعية كبيرة. كما عرف ديكنز بعلاقاته الكثيرة، منها علاقته المثيرة للغرابة بالشفيقة الصغرى لزوجته وتدعى (ميري)، والتي أصيبت بمرض مفاجئ وتوفيت بين ذراعيه وهي لما تزل في السابعة عشرة من العمر. وقيل أن ديكنز طلب أن يدفن الى جوارها وأنه أصبح يرتدي خاتمها في أصبعه طوال حياته!

كما وقع ديكنز في حب شقيقة أخرى لزوجته، وتدعى (جورجيانا). وكانت له أيضا علاقة طويلة بممثلة تدعى (ايلين تيرنان). وبهذا الصدد تقول عنه ابنته (كيْتي) التي توفيت في عام ١٩٢٩: "لم يكن والدي يفهم المرأة.. ولم يكن رجلا حصيفا أو (جنتلمان). كان أمره مختلطا عليه، ولكنه برغم ذلك كان أنسانا رائعا".

والملاحظ أن الأبنة (كيْتي) كانت تجسد صورة مغايرة تماما لصورة المرأة المقهورة في روايات والدها. فقد كانت أمرأة متحررة بمقاييس عصرها. وكانت تستضيف في بيتها بلندن رجال الفكر والأدب، من بينهم الكاتب المسرحي المشهور جورج برنارد شو. وكانت لوحاتها تعرض في الأكاديمية الملكية للفن (رويال اكاديمي)، كما كانت عضوة في (جمعية سيدات الفن) المرموقة.

وقد تردد في ذلك الوقت بأن طلاق والديها ترك في نفسها حزنا وأكتئابا لازماها طوال حياتها.

الناطق باسم الفقراء

كتب ديكنز في مدينة (برودستيرز) كما أسلفنا روايته المهمة (ديفيد كوبرفيلد) الصادرة في عام ١٨٥٠ والتي تعد وثيقة للنقد والأصلاح الأجتماعي. وقد عكست الرواية، التي يعتبرها النقاد بمثابة سيرة ذاتية له، الظروف القاسية التي تعرض لها في طفولته عندما عمل في أحد مصانع الأحذية في لندن بسبب العوز الذي تعرضت له أسرته بعد سجن والده، ما شكل له نقلة قاسية من عالم الطفولة الحافل بالدمى والألعاب الى عالم المشردين والمنحرفين. وطالما تحدث ديكنزعن هذه المرحلة بمرارة، ولم يكن ليغفر لوالديه زجه، وهو دون سن المراهقة، في تلك الأجواء.

كان المعلمون على أيام ديكنز يستخدمون العنف الجسدي مع التلاميذ ولم تكن هناك تشريعات تنظم طرق التدريس. وكان ديكنز يدعو الى نبذ الضرب وعدم أتباع أسلوب التحفيظ الببغائي أثناء التدريس، وكانت دعوته الأصلاحية تحث على غرس القيم الأخلاقية في نفوس التلاميذ مع أعطائهم حرية أختيار المواد الدراسية وفقا لميولهم ومواهبهم. وقد أدت جهوده الأصلاحية الى أحداث تعديلات جوهرية في نظام التربية والتعليم بدأت تأتي ثمارها أبتداء من عام ١٨٧٠.

إن شهرة ديكنز كاتباً مبدعاً منحته سلطة أجتماعية يظل ديكنز جديرا بالأهتمام والدراسة حتى اليوم.. انه أول كاتب تقرأه الطبقة السفلى في المجتمع ويدفن مع العظماء في مقبرة ويستمنستر. لقد هاجم ديكنز في روايات (أوقات عصيبة) و(بليك هاوس) و(ليتل دوريت) و(اوليفر تويست) المؤسسات الأجتماعية بشدة، مع ذلك فأنه لم يتعرض لأي عداء أو إستهجان، والحقيقة أنه بأنتقاده المؤسسات التعليمية والحكومية والقانونية كان ينتقد الطبيعة البشرية أكثر من أية جهة أخرى".

وحول أتهام ديكنز بتبني الأفكار الأشتراكية لكونه عاش في ماعرف بالعصر الصناعي الجديد الذي مهد لظهور نظرية كارل ماركس، يقول أورويل: "يقال أن الناقد (ماكولي) رفض ان يكتب عرضا لرواية (أوقات عصيبة) لديكنز، لكونه، أي الناقد (ماكولي)، لايتفق مع الحس الأشتراكي في تلك الرواية.. لكن في الحقيقة ليس هناك سطر واحد فيها يمكن أن ينسب إلى الفكر الأشتراكي.. بل أنها رواية رأسمالية ولكنها تدعو الى رأس المال الشريف اكثر مما تدعو الى قيام ثورة عمالية. لقد أراد ديكنزالقول ان الناس اذا ماتصرفوا بنزاهة فان العالم سيكون نزيها"

ألف ليلة وليلة.. الحب الأول!

ولد تشارلز ديكنز في السابع من شباط من عام ١٨١٢ لأسرة من الطبقة المتوسطة تعيش في بورتسموث بمقاطعة هامشير في جنوب انجلترا. وتمت الولادة في تمام الساعة الثانية عشرة ليلا من يوم جمعة.

وقد كتب لاحقا عن حدث ولادته بقوله: "كان صراخي في لحظة الولادة ينطلق في ايقاع متناغم مع دقات الساعة وهي تعلن عن حلول منتصف الليل".

كان والده يعمل في دائرة حكومية تابعة للبحرية وكان يتقاضى راتبا جيدا الا انه كثيرا ماكان يعجزعن تسديد اجور السكن فيتعرض للسجن. وكان الوضع المعيشي المتأرجح للأسرة من اسباب عمل ديكنز في احد مصانع الأحذية بلندن. فواجه مسؤوليات الحياة وهو في سن غضة وتعرض لظروف قاسية نقلته من عالم الطفولة السحري الذي كان يجد فيه كل مايتمناه الطفل من العاب وقصص الى عالم يعج بالمذنبين والمشردين.

يقول الناقد غريهام سمث الذي كتب سيرة حياة ديكنز واصفا تأثير قصص ألف ليلة وليلة عليه قائلا:

" أن قصص ألف ليلة وليلة هي (الحب الأول) في حياة ديكنز. فقد ساعدت (حكايات الجني) بشكل خاص على تشكيل خياله، ومكنته من الوصول الى (ذروة شعرية) في الكتابة بدلا من الأكتفاء بالنقل العادي لمجريات الواقع. ان هذه الذروة الشعرية هي مايجسد قدرته الحقيقية ككاتب".

ويقول باحث آخر هو (تيم ريمر) حول تأثير قصص ألف ليلة على نشوء الرواية الأوروبية: "لايمكن تجاهل دورهذه القصص في تشكيل التجربة الأدبية لديكنز ولبقية الأدباء الذين عاصروه. بل لايمكن في الحقيقة تجاهل دورها في ظهورالروايات المبكرة العظيمة في أوروبا" .

تم جمع وتدوين حكايات ألف ليلة وليلة في بغداد في العصر العباسي خلال الحقبة الواقعة مابين القرنين التاسع والرابع عشر الميلادي، وترجمت لأول مرة في اوروبا من قبل أحد رجال الدولة الفرنسيين وهو (انطوان غالاند) الذي كان واسع الاطلاع على اللغات العربية والتركية والفارسية.

◄

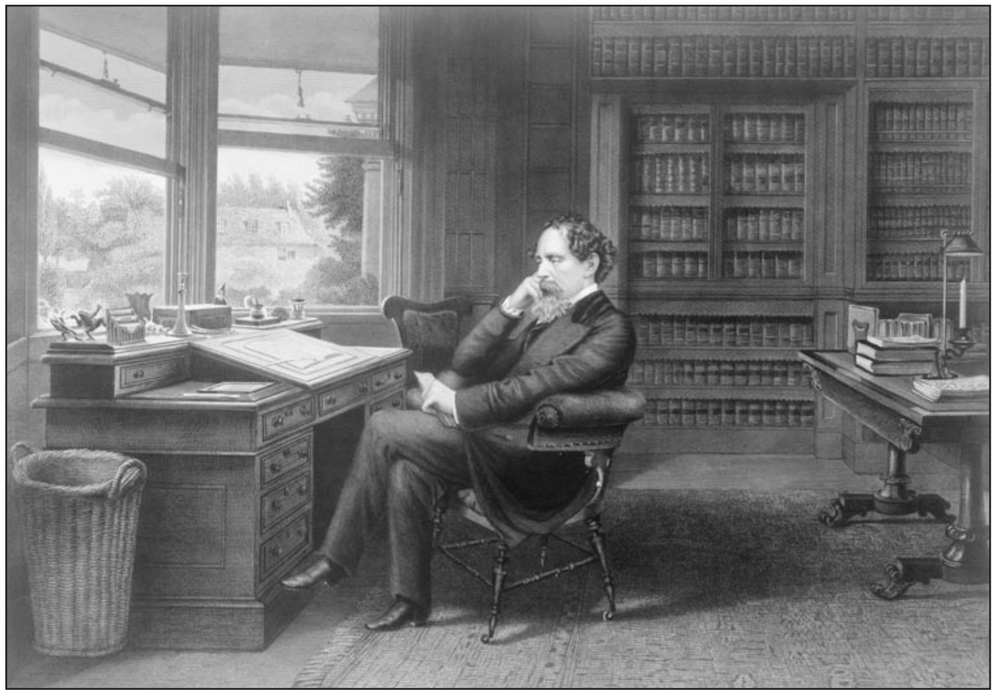

أن (الليالي العربية) هو الكتاب الذي أعتمد عليه ديكنز ـ بعد شكسبير والكتاب المقدس ـ في رواياته ورسائله. كانت (الليالي العربية) حاضرة في ذهنه الى درجة أنه كان يشير اليها في أية مناسبة وكل مناسبة.. وكانت عنصرا ثابتا في محاضراته وأحاديثه

بيت طفولته الذي ولد فيه

قرأ غالاند رحلات السندباد في عام ١٦٩٠ وتمكن من ترجمتها بشيء من التصرف في عام ١٧٠١. أما ترجمتها الى اللغة الأنجليزية فقد صدرت في عام ١٨٨٥ من قبل ريتشارد بيرتون. وفي بداية القرن التاسع عشر سعى كتاب عديدون في انجلترا الى أعادة تقديم قصص ألف ليلة كل بأسلوبه الخاص، وصدرت نسخ عديدة محورة تروق لعموم الناس

منها نسخة الكاتب الانجليزي جيمس رايدلي. وقد أنتشرت تلك النسخ في معظم البيوت في العصر الفيكتوري، ووجد الصغيرديكنز نسخة منها في قبو منزله. وقد تأثر ديكنز بشدة بهذه الحكايات وألف على منوالها، وهو في الحادية عشرة من العمر، مسرحية بعنوان (مسنار: سلطان الهند) ولكن هذا الأبداع الأدبي المبكر ضاع ولم يعثر له على أثر.

عالم ديكنز السحري!

في الزقاق الرئيس لمدينة (برودستيرز) يوجد العديد من المكتبات التي تزدحم بالكتب القديمة والنادرة. وتضم مكتبة (البيون بوك شوب) مجموعة قيمة من الكتب المتعلقة بديكنز، أحدثها كتاب صادر في السبعينيات بعنوان (عالم تشارلز ديكنز) وضعه الناقد الأنجليزي السير أنجوس ولسون (١٩١٣-١٩٩١). نقرأ في هذا الكتاب، الذي تتخلله رسوم تصور المجتمع الفيكتوري، عن حادثة طريفة وقعت لديكنز حين كان طفلا شديد الولع بالدمى والأقنعة المصنوعة من الورق، إذ أستيقظ ذات ليلة من نومه مذعورا وهو يصرخ "إنه قادم الي..." ويبدو أنه رأى في المنام احد تلك الأقنعة التي يلعب بها في النهار يتحرك صوبه! ويعلق الناقد ولسون حول تأثير هذه الحادثة بقوله: "إن المتعة المزوجة بالملهع هي أهم ماييميز روايات ديكنز ويجعلها جذابة للقارئ. إن ديكنز يمنح الحياة للأشياء الجامدة ويجعلها تتصرف كالمخلوقات البشرية، وربما هو يفعل ذلك لأنه كان في طفولته يتحدث الى الدمى والأقنعة ويتعامل معها كبشر".

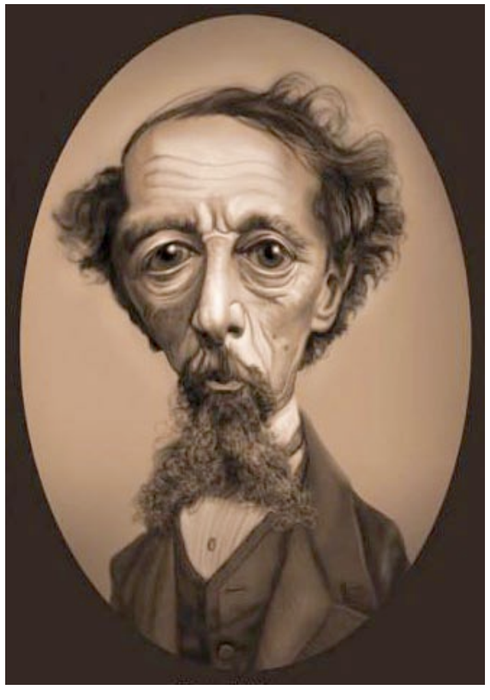

ويضيف الناقد ولسون: "لقد كتب ديكنز ذات مرة عن أهمية الخيال بالنسبة للأنسان، قائلا: في عصر تحكمه الصناعة، نحتاج الى خيال الطفولة لكي تنمو أحلامنا".

وفي موضع اخر من هذا الكتاب الشيق نجد وصفا صادقا لأهمية قصص ألف ليلة وليلة في تشكيل تجربة ديكنز الروائية. فيقول السير ولسون أن الدورالتي لعبته القصص يتضح على مستويين هما المستوى الخيالي والمستوى السردي. ويقر بأن موهبة ديكنز ككل أستندت الى دعائم عربية قوية. ويوضح قائلا: "أن (الليالي العربية) هو الكتاب الذي أعتمد عليه ديكنز ــ بعد شكسبير والكتاب المقدس ــ في رواياته ورسائله. كانت (الليالي العربية) حاضرة في ذهنه الى درجة أنه كان يشير اليها في أية مناسبة وكل مناسبة.. وكانت عنصرا ثابتا في محاضراته وأحاديثه. وقد أشار اليها في أول خطبة له ألقاها في بوسطن بالولايات المتحدة في عام ١٨٤٢، ثم في واشنطن وفرجينيا، حيث كان يستخدم في تلك الخطب عبارات مثل: " كما الجني في الحكاية" و "كما الأميرة في الليالي العربية".

ويقر السير ولسون أيضا بان ديكنز تعلم من ألف ليلة أسلوب السرد الروائي المشحون بالترقب، أي مثلما كانت شهرزاد تفعل مع شهريار حين كانت تستحوذ على إهتمامه بتأجيل نهاية القصة في كل ليلة. ويتجلى إستخدام ديكنز لهذا الأسلوب في رواية (ديفيد كوبرفيلد)، فكان بطل الرواية يشعر بالخوف والهلع من فقدان الرعاية التي يقدمها (ستيرفورث). كما يتجلى في رواية (دكان العجائب القديم) التي تشير بعض المصادر الى أن نشرها في حلقات مسلسلة أدى الى تعلق الجمهور الشديد بها و أصبح ديكنز يستلم رسائل كثيرة تطالبه بأنقاذ حياة الشخصية الرئيسية في الرواية وهي الطفلة (نيل). ليس هذا فحسب بل يقول السير ولسون ان ديكنز أستخدم شخصيا اسلوب شهرزاد بنشره الرواية على حلقات متسلسلة لكي يزيد لهفة القراء! ويعقد ولسون مقارنة شيقة بين المصير الذي كان ينتظر شهرزاد وبين التزام ديكنز تجاه الناشر فيقول: "ان وقوف عامل المطبعة عند باب ديكنز ليأخذ المادة كل اسبوع هو اشبه بتهديد شهريار لشهرزاد بالموت، فكأنه يقول له: "أعطنا حكاية جديدة، وإلا.."

ولكن برغم أهمية قصص ألف ليلة وليلة في تشكيل تجربة ديكنز الأبداعية فأن جدول المهرجان الحافل بالأحاديث والعروض لم يعكس هذا الركن الجميل من أركان طفولته وأدبه. وردا على سؤال طرحناه على السيدة سيلفيا هوكز، أحدى عضوات لجنة المهرجان، حول هذا الجانب ردت بالقول: "لايوجد في مهرجان السنة الحالية فقرة تتطرق الى علاقة ديكنز بقصص ألف ليلة، ولا أذكر أن المهرجان تطرق الى هذا الموضوع منذ أنضمامي اليه منذ أحد عشر عاما".

مراكب الأحلام

حين نتأمل الامتداد الريفي الأخضر المحيط بالمدينة، تتسرب الى أذهاننا صورة ديكنز وهو يستغرق في تدوين رسائله الى أصدقائه القاطنين في أرجاء أخرى من أنجلترا. كانت الرسائل تتحدث عن جمال الطبيعة واعتدال المناخ وأهمية أن يأتي الأصدقاء لزيارة (برودستيرز) والاستجمام فيها. في ذلك الوقت كان السفر بالقطار ظاهرة جديدة ومحدودة الاستعمال وكانت القوارب البخارية هي الوسيلة المعتادة للنقل، والمفضلة لدى ديكنز أيضا. كتب في ٢٩ أيلول من عام ١٨٤٢ الى صديقه ومؤرخ سيرته جون فورستر مبديا تذمره لعدم أمكانية السفر بالقارب:

"... إن البحر هائج، وكان القارب ينتظر في (مارغيت) طوال الليل بكامل ركابه... لذا فسوف نضطر الى أستخدام العربة والعودة برا، طبعا لن يكون بمقدورنا أن نفتح الشبابيك أو نمد أرجلنا...).

وكتب في تموز من عام ١٨٤٣ الى صديقه المستر آلان قائلا: (لاتنسى موعدنا في بروستيرز...بحر رائق، نسمات عليلة، رمال ناعمة، ونزهات جميلة، بالإضافة الى المنار و قوارب الصيد...أنها واحدة من أنقى الأماكن هواء في العالم...والمكان المناسب لك!).

×××

نتأمل في معالم وأركان المدينة التي أحبها ديكنز ونشعر بأنها مازالت تحتفظ بالجمال الطبيعي الذي وصفه برغم مرور قرابة مائة وأربعين عاما على رحيله!

توفي ديكنز في عام ١٨٧٥ إثر مرض مفاجئ، وقيل أن الجهود التي كان يبذلها في التفكير والكتابة ساهمت في رحيله المبكر. ويُرجّح أنه أصيب بجلطة دماغية أدت به الى الشلل. وقد عم الحزن البلاد لوفاته بعد أن غدا شخصية وطنية تعبرعن مشاكل المجتمع وتساهم في تقويم وأصلاح مؤسساته. الأمر الذي جعله في مصاف العظماء، ودفن في كنيسة (ويستمنستر) مع القادة والشخصيات التاريخية. ورحل ديكنز تاركا حكايات شهرزادية لاتنضب عن مرحلة مهمة من تاريخ أنجلترا والعالم، بما تضمنته من تحولات وأنجازات كبيرة.

ديكنز والخرافة!

كان الناس في العصر الفيكتوري يؤمنون بالكثير من الخرافات، ومنها أن الزواج وغيره من التعاقدات الاجتماعية التي تتم في يوم الجمعة يكون مصيرها الفشل..! إلا ان ديكنز أثبت بطلان هذه الأفكار وصرح بان كل تعاملاته التي تمت في يوم الجمعة كانت ناجحة.

هذا المقال سبق ان نشر في صحيفة المدى عام ٢٠٠٦

قال فيودور دوستيفسكي في عام ١٨٦٢ ان تشارلز ديكنز أبلغه ان الشخصيات الشريرة التي ابتكرها في رواياته هي «ما كانت عليه طبيعته (بل بالاحرى ما اكتشفه في نفسه) من القسوة ونوبات العداوة التي لا أسباب من ورائها تجاه من يعانون العجز ويلجأون اليه طلبا للتعزية، والسلوى، وابتعاده عما كانت عليه محبتهم. فهناك شخصان في داخله، أحدهما يشعر بما يجب ان يعبر عنه من مشاعر والاخر لديه شعور مضاد لذلك. وتلك عبارات مفاجئة تبدر من شخص ينظر اليه على انه مثال للطيبة واكثر الناس احتفاء بالسعادة البيتية وباعياد الميلاد المناسبة التي تغير الشخصيات السيئة فيها سلوكها.

شخصيات ديكنز القاسية نابعة من دواخله

مع ابنتيه

ما قاله ديكنز لدوستيفسكي يظهر في تاريخ زواجه، فعند بلوغه سن الرابعة والعشرين كان يتوق للاقتران بحبيبته كاثرين ذات العينين الزرقاوين، ولكنه كان مصراً على وضعها في قالب الزوجة المطيعة، وعندما عبّرت عن غضبها خلال فترة الخطوبة قال لها ان ذلك سلوك غير مقبول، وانها ان كانت قد سئمت منه، فانه يستطيع انهاء الخطوبة فورا. وكتب يقول «أنا لست غاضبا ولكني شعرت بألم، واني احذرك لآخر مرة»، لقد بدا ذلك وكأنه صادر بصوت مستر مردستون، زوج والدة ديفيد كوبر فيلد القاسي، والتزمت كاثرين بذلك التحذير.

شهر عسل قصير

وشهر العسل الذي قضاه في مسكن صغير في مقاطعة كنت استمر لفترة جاوزت الاسبوع قليلاً، وقد ظل خلالها يعمل في روايته «أوراق بيكويك» التي حققت شهرته، وحملت كاثرين بعد شهر من ذلك، وخلال ١٦ عاماً ولدت له عشرة أطفال، وقد وجدت صعوبة في ارضاع ابنه الأول تشارلي، واصابها الحزن عندما أحضر مربية مرضعة، وبعد ذلك كان طفل يُسلم الى مربية مرضعة مما جعلها تتفرغ لخدمة زوجها، والسفر معه، واستقبال ضيوفهما الكثر. وكانت اسميا مسؤولة عن تدبير شؤون البيت، ولكن كان ديكنز في واقع الأمر المسيطر على كل أوجه حياتهما.

غير ان هنالك جانباً وحيداً، فشل في فرض ارادته عليه، فقد كان لا يرغب في اكثر من ثلاثة أطفال، وبعد ميلاد تشارلي وطفلتين قال: يكفي، ولكن جاء المزيد من الأطفال، وعانت كاثرين من آلام الوضع، وبدأت تعاني من القلق وهبوط الروح المعنوية في كل حالة حمل، وديكنز الذي كان يحرص على متابعة التطورات التقنية سأل عن مادة الكلوروفورم، وطلب تزويدها بها في حملها الثامن. ولكنه لم يسع للحصول على مشورة في ما يتعلق بمنع الحمل.

الرحلة إلى أميركا

وبعد مولد طفلها الرابع في عام ١٨٤١ قرر القيام برحلة طويلة الى اميركا، وأخذ كاثرين معه وترك الاطفال في انكلترا، وقد استقبل هناك استقبال المشاهير، حيث حيته الحشود بالتصفيق، وصيحات الإعجاب، واقيمت له المآدب، وانتزعت النسوة قطعا من معطفه المصنوع من الفراء، وقطعا مسافة ألفي ميل في رحلتهما عبر الولايات المتحدة أحيانا باستخدام القوارب النهرية وعبر بعض الطرق الوعرة.

وأبدت كاثرين هناك نوعا من الاستقلالية والاعتماد على الذات، وأثنى عليها ديكنز ووصفها بأنها تتميز بقدرة على تحمل أوضاع الاسفار، وكانت تلك هي المرة الاولى في زواجهما يواجهان فيهما العالم بالاعتماد بعضهما على بعض، فهو لم يكن يمارس الكتابة حينها، وكان اصدقاؤه غائبين، لم تكن هي حامل، ولأول مرة تمكنت من لعب دور شخص مهم في حياته وزادت طاقتها وثقتها بنفسها.

قصة «خاتم»

وقبل سنوات قليلة ماضية كانت قد انضمت إليهما ماري، إحدى شقيقات كاثرين الاصغر، لتقديم يد المساعدة لهما، وكانت في السادسة عشرة من عمرها معجبة إعجابا كبيرا بزوج شقيقتها، وكان هو ايضا يبادلها الإعجاب، ولكن صحتها تدهورت فجأة وتوفيت في أحضانه من غير معرفة الأسباب، وأصابه هذا الأمر بحزن بالغ، ولأول مرة في حياته لم يسلّم حلقتين في كتاب كان ينشر له مسلسلا، وأخذ خاتما من إصبعها ظل يلبسه طوال حياته، كما عبّر عن رغبته في أن يدفن الى جوارها، وتقبلت زوجته كاثرين هذا التعبير العلني عن الحزن بهدوء، وإن كان ذلك أثار لديها بعض التساؤلات. وبعد عودتهما من أميركا، انضمت إليهما أخت صغرى أخرى، وهي جورجينا، وكانت في الخامسة عشرة من عمرها، وبعد ذلك في وقت قصير حملت كاثرين مرة أخرى، بينما تحولت جورجينا الى «قطته الأليفة الصغيرة»، وكان بالنسبة لها شخصية عظيمة لا يوجد مثيل لها، وأكدت جورجينا شخصيتها مع مرور السنين وباتت شخصية مؤثرة ضمن الاسرة. وبحلول عام ١٨٥٠ كانت أوضاعه المالية تعززت، حيث كان يدير مجلة اسبوعية ويصدر روايات توزع عددا كبيرا من النسخ، ولكن صحب ذلك النجاح بعض عدم الاستقرار، وكانت كاثرين قد فقدت جمالها وشبابها، وزاد وزنها، وعانت المرض بعد مولد طفلها التاسع، وكان ديكنز يعاملها بعطف، ولكن شعوره بعدم الاستقرار تزايد، وعندما التقى الين تيرنان الممثلة الشابة في عام ١٨٥٧، وقع في حبها.

حب الشيوخ

كان وضعا غريبا وقع فيه رجل في مختتم العمر في حب شابة صغيرة السن. ولكن لا يوجد ما هو غريب في اسلوب حياته، وبات يتسم بالقسوة. واقام حائطا يفصل غرفة نوم الزوجية، عازلا زوجته امام انظار جميع المقيمين في البيت وانتقل من مسكنه في لندن. ولم تساند جورجينا شقيقتها، واعتمدت كاثرين التي اصابتها الحيرة على والديها. ونشر ديكنز بيانا شخصيا، قال فيه ان الانفصال كان وديا بعد سنوات من المشاكل الزوجية، وهو قول غير صحيح. وسمح بنشر بيان في الصحافة الاميركية يتهم كاثرين بانها تعاني اضطرابات عقلية، وتلك كذبة اخرى. وابلغ صديقتها مس كوتس ان كاثرين لم تحب البتة اطفالها، كما انهم لم يحبوها، وهذه اكاذيب اخرى.

واختلف ديكنز مع اصحابه وقاطعهم لانهم انتقدوا سلوكه، واغلق المجلة التي كان يديرها مع ناشر وتخلى عنه واصدر مجلة جديدة اقترح ان يطلق عليها اسم «تناغم الأسرة» مما يكشف فقدانه لحس الفكاهة.

دواء جماهيري

كما شرع في جولة قراءات تجارية ووجد في الجمهور المعجب به دواء لمعاناته النفسية، واعاد ديكنز تنظيم حياته، وأصبح مكان سكناه الشقة التي في مكتبه وبيته في غادس هيل القريبة من روشستر في مقاطعة كنت، والذي كانت تشرف عليه جورجينا، وابقى اطفاله معه واجرى تسوية خاصة بكاثرين، وقد تصرفت كاثرين بكل وقار وثبات عندما أتتها انباء وفاة ابنهما والتر في الهند، ولم يتحدث اليها او يكتب لها ديكنز.

وديكنز الذي كان يحب الشخصيات الشريرة القاسية مثل ميردستون، وكويلب، وسكوير، انضم الى صفوفهم.

رسالة أخيرة

وهذه ليست نهاية القصة، فعندما كان يستعد للذهاب في رحلة قراءات في اميركا، ارسلت له كاثرين رسالة قصيرة تتمنى له فيها التوفيق، ورد عليها قائلا «عزيزتي كاثرين، أسعدني تلقي رسالتك وأبادلك التمنيات بالتوفيق فهناك عمل صعب للغاية في انتظاري، وهذا ليس بالأمر الجديد في حياتي، وأنا قانع بالسير في طريقي وانجازه. المخلص، تشارلز ديكنز». وتلك عبارات باردة ولكنها اكثر دفئاً من تلك التي كانت قد سمعتها منه لعدة سنوات. وكاثرين عاشت بعد وفاته تسع سنوات، ولكن لم تتم دعوتها لحضور جنازته، وقد حفظت جميع رسائله وطلبت من كاتي ان تنشرها جميعاً لإثبات انه كان يحبها.

عن / صنداي تايمز

ديكنز.. حين يصبح الكاتب مثالا لعصره

الكتاب: تشارل ديكنز في سياق عصره
تأليف: سالي ليدجر
الناشر: جامعة كمبردج- ٢٠١٢

كتب كثيرون عن تشارلز ديكنز. وقال النقاد عنه إنه مثّل عصره إلى درجة كبيرة، بحيث أصبح "رديفاً له"، وبالتالي من المهم جداً قراءته "في سياق عصره".

و"تشارلز ديكنز في سياق عصره"، هو عنوان كتاب تقدمه الباحثة البريطانية والأستاذة الجامعية سالي ليدج، حيث تحاول فيه إلقاء الضوء على العوالم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية التي قدم ديكنز أعماله الخالدة في سياقها.

ما يتم شرحه في القسمين الرئيسيين للكتاب الذي يحمل الأول منهما عنوان: "الحياة والحياة بعد الموت". والثاني: "السياقات الاجتماعية والثقافية"، هو أن الحياة المهنية لتشارلز ديكنز، تشمل مجمل أعماله كروائي وصحافي وناشر وقارئ عام. ومدافع متحمس عن الإصلاحات الإجتماعية. والمؤلفة تقدم شرحاً مفصلاً لديكنز في جميع هذه الأدوار، عبر "التنقيب" في صفاته الرئيسة. وعبر هذا كله يتم الكشف عن "وجوه مدهشة أحياناً للإنسان وعن "التنوّع الكبير" في صنعته.

وتوضح المؤلفة ان ديكنز من مواليد عام ١٨١٢، وهو الثاني من بين أسرة من ثمانية أطفال، ومن السمات الأساسية التي يتم التأكيد عليها في مسيرة حياته، هو أنه كان "نهماً" للقراءة منذ سنوات شبابه الأولى. وكان قد تحدّث في كتاباته اللاحقة عن العديد من "الذكريات القاسية" التي عاشها في طفولته. وأما كتاباته الأولى، فقد كانت أغلبيتها عبر سلسلة متتالية من الحلقات في الصحف والدوريات. وإذا كانت النسبة الغالبة من الكتاب قد نالت شهرتها بعد نشر عمل روائي كامل، فإن ديكنز قد "كرّس شهرته" أولاً عبر الكتابة في حلقات. وخاصة أنه برع في جعل الجمهور "يتشوّق" كل مرّة، لمعرفة ما تخبئه الحلقة المقبلة.

ومن السمات التي يتم التأكيد عليها في فن كتابة تشارل ديكنز، أنه كان من هواة أدب القرن الثامن عشر، وأنه كان يعشق الأمكنة، ذلك إلى درجة أن العاصمة البريطانية لندن، أصبحت أحد "شخوص" أعماله الروائية. إن الكثير من مظاهر المدينة تجد توصيفها في مجمل تلك الأعمال.

وفي كل الحالات تميّز أسلوبه بقدر كبير من الحس الشعري. ولكن العامل الأكبر في اكتسابه شعبية كبيرة، يتم تحديده في التحليلات المقدّمة بسخريته اللاذعة، من الطبقة الارستقراطية الانجليزية التي تتمتع بقدر كبير من التملّق والتظاهر بالرفعة.

وتتم الإشارة في هذا السياق، إلى أن أسماء العديد من "شخوص" رواياته لها دلالتها على الأدوار التي تلعبها، مثل شخصية "موردستون"، في رواية دافيد كوبرفيلد، حيث تدل التسمية على التوليف بين "القتل" و"برودة الحجر". وعلى خلفية "التوليف" نفسها، يتم وصف الأسلوب الأدبي لتشارلز ديكنز، بأنه خليط من "الخيال الجامح- الفانتازيا" و"حس الواقع".

وتظهر إحدى ملامح "انسجام" ديكنز مع "سياق العصر"، الذي يعيش فيه في التشابه الكبير بين شخوص رواياته والبشر الذين يعيشون في الواقع، حيث كان من السهل على القارئ أن يجد نفسه في هذه الشخصية أو تلك. وحتى المواصفات البدنية تتشابه بين النموذجين: "الروائي" و"الواقعي". ذلك ما كان قد عبّر عنه أحد أصدقائه "جون فورستر" بالقول إن ديكنز يهب الحيوية لأشخاص حقيقيين، ليس عبر وصفهم، ولكن عبر تركهم يقومون بتوصيف أنفسهم".

و"تتجاوز" أعمال ديكنز سياق عصره، من خلال البعد الاجتماعي الذي تحتوي عليه رواياته. وهي تحتوي على كم كبير من النقد اللاذع للفقر "مصدر الألم الحقيقي للكثير من البشر". وكذلك النقد لـ"التراتب الاجتماعي" الهرمي خلال الحقبة الفكتورية- حكم الملكة فكتوريا-. ومثل ذلك النقد برز بوضوح في رواية ديكنز التي تحمل عنوان: "اوليفر تويست"، بما احتوت عليه من صور الفقر والجريمة. وكأن الأمر كان يتعلق بتوصيف الأحياء القصديرية المحيطة بلندن آنذاك.

ديكنز.. حياة منضبطة و إسراف في الخيال

الكتاب: تشارلز ديكنز
تأليف: مايكل سليتر
ترجمة: عادل العامل

استفسر صديق أميركي من تشارلز ديكنز ذات يوم على العشاء عن أعمال خياله تلك. من أين تأتي تلك الشخصيات المدهشة، يا تُرى؟ "أي غموض لا يُسبر غوره في ذلك كله"! رد عليه مبدع نيل الصغير، و أوليفر تويست، إبينيزير سكروج، و يوريا هيب، و بيب، و بيكويك و آخرين.

و استأنف ديكنز يقول رافعاً كأسه: "افترض أنني أخترتُ أن أدعو هذا شخصية، تخيّله رجلاً، هَبه خاصيات معينة؛ و سرعان ما نجد أنسجة غشائية رائعّة من الفكر، و هي تأتي من كل اتجاه، تدور و تنسج حوله، إلى أن يتخذ شكلاً و جمالاً، و يُصبح موهبةً ذات حياة". لقد تأمل الدارسون هذا الغموض mystery لأكثر من قرن من الزمن. و يبدأ مايكل سليتر سيرة حياة الكاتب بحدثين أساسيين في طفولة ديكنز: سجنِ أبيه بسبب دَين و تجربة الطفل في عمل مُذل في معمل طلاء الأحذية. و أكثر من ٦٠٠ صفحة لاحقة حتى ديكنز المتقدم في السن، الغني آنذاك، و المشهور و المبجّل على نطاق واسع، حيث نجده يجالس الملكة، و هو يؤانسها بحديثه الظريف حول الخدم و "كلفة لحم و خبز القصابين". و ما بين هذين الزمنين هناك مقدار هائل من العمل الشاق. فمن الوقت الذي نشر فيه أول قصة له في عام ١٨٣٣ حتى وفاته في عام ١٨٧٠، ظل ديكنز منشغلاً بشكل محموم، ليس فقط بكتابته بل و أيضاً بيوميات اجتماعية متراكمة و التزامات مرهقة بأمورٍ خيرية، و قضايا و حملات. و كان ديكنز منضبطاً بشكلٍ لا يرحم، و متعدد المواهب و كثير الانتاج. و الانتباه الذي يوليه سليتر إلى كتابات ديكنز غير المعروفة كثيراً عنه ـ القصص القصيرة، الصحافة، المقالات ـ هو أحد الأمور التي تميّز سيرة الحياة الممتازة التي كتبها، و قد كانت حياة عائلة ديكنز مشحونة عاطفياً كأي شيء في أدبه القصصي. فزواجه لم يستمر بعد تقدمه، في عام ١٨٥٧، إلى إيلين تيرنان، و هي ممثلة. و كان عمره ٤٥ عاماً، بينما كان عمرها هي ١٨. و يبقى من غير الواضح تماماً أي نوع من العلاقة العاطفية قد باشراه عندئذ، لكن ديكنز كان في حالة خبل بما يكفي لإبعاد زوجته ذات الـ ٢٢ عاماً من الحياة الزوجية، كاثرين، التي أنجبت له عشرة أطفال. و قد تحدث عنها باعتبارها "صفحة في حياتي" التي كانت قد صارت فارغة كلياً. و في غضون ذلك راح يضع إيلين في أعشاش الحب في إنكلترا و فرنسا، حيث كان يزورها قدر ما يستطيع. و بعد أن بذل جهده لتحقيق وضع من الجدارة بالاحترام على نحوٍ شهم، لم يكن الطلاق و لا العلاقة الغرامية الصريحة خياراً لديه. و في نهاية الأمر يمكن أن يكون حب حياته العظيم قد أصبح ذلك الذي يتقاسمه مع قرائه المعجبين. و من المحتمل أن يكون سليتر، و هو بروفيسور الأدب الفكتوري في كلية بيركبيك بلندن، قد نسيَ عن ديكنز أكثر مما سيعرفه معظم الناس أبداً. و لا بد لتحدي ضغط حياة غنية و جدية التوثيق كهذه ضمن مجلد واحد أن يكون أمراً هائلاً. و يبرز هنا أمران. إنه جيد في ربط علاقة أحداث في حياة ديكنز بكتبه. و هذا أمر مفيد بوجه خاص في مناقشته "ديفيد كوبرفيلد"، أكثر روايات ديكنز علاقةً بسيرته الذاتية (و "طفله المفضل"). و هو جيد أيضاً في إنشاء الأعمال الرئيسة. فهو يعيد إنتاج نتف من "mems" ديكنز، الملاحظات المصقولة التي استخدمها ليحافظ على مسار مجموعاته الكبيرة من الشخصيات و محاور الروايات المتعددة. "يجب إبقاء حب إيستر تحت النظر، لجعل المحاكمة القادمة أعظم و النصر أكثر جدارةً"! "جو؟ أجل. اقتله". و إن كون مثل هذه العبارات السريعة كل ما يحتاجه ديكنز للاحتفاظ بالكتلة المتشابكة لـ "BleakHouse" متسلسلة في رأسه هو أمر مثير للدهشة. مع هذا فإن الأكثر إثارة للدهشة هو حقيقة أنه مع بعض رواياته اللاحقة، مثل "توقعات عظيمة"، كان يرى الحبكة على نحو واضح من البداية إلى حد أن لم يزعج نفسهُ بملاحظات من أي نوع. لقد كتب السيد سليتر سيرة حياة فاتنة و جديرة بالاعتماد. و ربما كان قد عمل ما هو أكثر للتمكن من التعبير عن البؤس المطلق لعالم ديكنز القصصي. و يمكن القول إن الحياة توصف بطريقة خيرة. لكن الغموض الأساسي لما أشعل ذلك الخيال الفريد و المعطاء يبقى، كما قال ديكنز لصديقه الأميركي، أمراً لا يُسبر غوره.

عن / The Economist

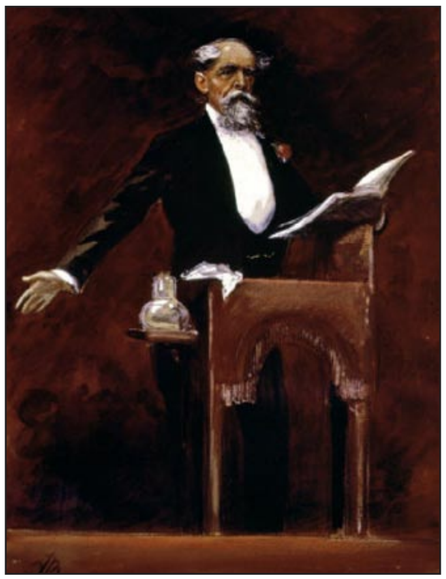

تشارلز ديكنز الرحّال

فيء ناصر

حينما كانت بقاع العالم مجهولة للكثيرين ومتعة السفر غير متاحة لكل الناس، كان أدب الرحلات لايكتب للتسلية أو مجالاً للكاتب للعربدة بحرية في الأماكن الغريبة، كان وصف البلدان النائية أهم مبتغى للرحالة، وكان كذلك، لجعل الناس ينتقلون الى بقعة اخرى من العالم ولو ذهنياً، كان الغرض الأساس لهذا النوع من الأدب هو التعلم وتوسيع المدارك اكثر منه للتسلية والترفيه.

وهذا بالضبط ما كان متوقعاً من المختارات الجديدة لادب الرحلات التي كتبها تشارلز ديكنز، والتي صدرت عن دار (هسبريوس برس/٢٠١٠) في ١١٢ صفحة. بالتأكيد، يحتوي الكتاب على بضع صفحات طوال من الوصف الناشف للأماكن وفي صفحات اخرى، يتحول الوصف الى ريبورتاجات إنثروبولوجية تشبه الى حد كبير ما كتبه ماركو بولو او إبن بطوطة، ولكن هناك صفحات أكثر من الوصف الدافئ المصحوب بالحوارات والفكاهة، وقد يجد القارئ نفسه يقهقه فجأة مع الكاتب الذي مخر عباب الاطلسي وإستقل القطار البخاري الى باريس وزار جميع أرجاء إيطاليا أو ببساطة، يصحح مسالك الدروب لسائقي سيارات الاجرة في لندن، لقد عاين الكاتب الواقع وعاش الحياة وإستمع الى احاديث الناس وإن كانت معيبة، لذا فقد شعر بمفارقات حيوات هؤلاء ونقل كل ذلك الى قارئه ببذخ. ديكنز يصحبنا في هذه الرحلات معه ويجعلنا نحس بمشاعر الناس حوله وكيف يعيشون حياتهم، مثلا عندما يرحل بسفينة من بريطانيا الى امريكا ويراقب بعين الكاتب، إمراة ورجل، على متن السفينة، غامضان ويهربان من الناس وكيف ان الرجل يحمل مسدسات اكثر من روبنسون كروزو نفسه. ويتابع الوصف (أتذكر إنه جرب خنزير مشوي وقدح من البيرة كعلاج لدوار البحر وكان يأخذ وجبته إلى قمرته يوماً بعد اخر بمواظبة مدهشة). هذه المقاطع الطريفة تجعل من أدب الرحلات الذي كتبه ديكنز حيوي وحداثوي في ذات الوقت، فهو لا يتحدث فقط عن الأماكن لكنه يَتَسمّع باذنه حتى اللغو وتوافه الأشياء ويصوّر الجمال والشباب كما الشيخوخة لأنه ينظر بعين ديناميكية إلى حياة الآخرين.

وحين يرتحل ديكنز بالقطار الى فرنسا يكتب: (لقد لاحظتُ إن الفرنسيين قد كبروا بأحجامهم او كأنما إستطالوا والانكليز بدأوا بالإنكماش، الفرنسيون في وطنهم تقريبا، وها هم ينفضون عنهم غبار غربتهم بينما نحن نلتفع بغبارها، هذه الإلتقاطات البسيطة لمشاعر البشر تبقى صحيحة في الحاضر كما كانت في الماضي، طبقات التخيّل الواقعية هذه، تجعل من حكايات ديكنز حقيقية وغنية، ويبدو إنه أدرك منذ وقت طويل إن السفر بحد ذاته ليس مثيراً، ولكن الناس في الأمكنة البعيدة هم من يمنح السفر متعته وذكرياته، والمدن وحكاياتها تستمد حياتها من حياة البشر فيها.

هذه المختارات البسيطة المنتقاة من كتابات شالز ديكنز عن رحلاته، معنيّة بالناس قبل الاماكن وهذه الخاصية هي من تجعل اي كتاب يستحق القراءة وكما ترد عبارة لديكنز في هذا الكتاب: (كلما زادت معرفة الإنسان بالانسان كلما زادت الاخوة بين بني البشر).

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

200 عام على ولادة عبقري الرواية

احتفلت بريطانيا بكاتبها الأشهر تشارلز ديكنز لمناسبة مرور ٢٠٠ عام على مولده. وديكنز عامة لا يغيب عن المشهد العام البريطاني، فهناك دائما عمل من أعماله يعرض على التلفزيون أو في السينما أو حتى معرض يدور حول حياته وأعماله. وهذا العام مع الاحتفالات بمولده عرض التلفزيون حلقات درامية تعتمد على روايته الشهيرة «آمال عظيمة»، وقوبلت بتر حاب شديد من المتفرجين على الرغم من أن الرواية قد عولجت مرارا في التلفزيون والمسرح والسينما. ولم يمنع هذا أيضا من العروض المتكررة لمسلسلات وأفلام معتمدة على رواية «كريسماس كارول» التي تعتبر فقرة ثابتة في احتفالات أعياد الميلاد. أما متحف لندن فقد احتفل بطريقته وأقام معرضا ضخما عن ديكنز ضمنه مجموعة من النسخ الأولى لروايات الكاتب ومخطوطات أصلية بخط يده إضافة إلى قطع من أثاث منزله منها المكتب الذي استخدمه لكتابة عدد من رواياته.

وقد قام الأمير تشارلز ولي العهد البريطاني بوضع إكليل من الزهور على قبر ديكنز بركن الشعراء في كاتدرائية ويستمنستر أبي مطلقا الاحتفالات في كل مكان ممثلة في جولة قراءة تستمر لمدة ٢٤ ساعة لأعمال ديكنز في عدد من بلدان العالم تشمل ألبانيا وزمبابوي ويشارك فيها من بريطانيا الممثل سايمون كالو الذي اشتهر بأداء الأدوار الشكسبيرية. وحسب تقرير لمحطة «بي بي سي» فقد قال كالو بأن اليوم الماراثوني لقراءة أعمال ديكنز يعد «مؤثرا بشكل خطير»، وسيقوم من خلاله بقراءة لرواية ديفيد كوبرفيلد التي تعد بمثابة ترجمة لحياة ديكنز وذلك في مسقط رأس الكاتب في بورتسموث. وأضاف كالو لـ«بي بي سي»: «اتخذت قرارا بأن آتي إلى المكان الذي ولد فيه ديكنز بدلا من الذهاب إلى كاتدرائية ويستمنستر التي لم يرغب قط أن ينتهي إليها»، مشيرا إلى رغبة ديكنز التي أبداها خلال حياته بأن يتم دفنه في كاتدرائية روتشستر بدلا من ويستمنستر أبي وهو ما لم يتحقق له.

أما مركز ساوث بانك في لندن فسيشارك في الدورة الماراثونية المقامة لقراءة رواية «دومبي أندصن» وبدأت من أستراليا. وتعليقا على الحدث، قالت مديرة القسم الأدبي في الملحق البريطاني والجهة المنظمة للفعالية لـ«بي بي سي»: «الحدث يعد استجابة للطلب المكثف من ٦٦ دولة مسّ أدب ديكنز وترا حساسا فيها. إن شخصيات ديكنز ومواضيعه ما زالت حية ومؤثرة اليوم كما كانت بالنسبة للقارئ في العصر الفيكتوري».

ومن الفعاليات المرافقة للاحتفال سيتم تدشين صحيفة ديكنز وتطبيق على الـ«آي باد» لأدبه.

ومن جانبه قام محرك البحث «غوغل» بالاحتفال بديكنز بطريقته الخاصة حيث تحول شعاره الشهير إلى شخصيات من روايات الكاتب وبالضغط على الشعار نجد أمامنا صفحة بها وصلات لكل كتاب لديكنز يمكن قراءته على موقع "غوغل بوكس"

واختارت وكالة الأنباء الألمانية لتحقيقها عن ديكنز موضوع التغيرات الاقتصادية في بريطانيا حيث يعتقد كثير من البريطانيين في وطن ديكنز أن كتبه أكثر معاصرة عن ذي قبل.

ويقول ألكس ويرنر، من متحف لندن، الذي نظم واحدا من عدد من المعارض عن ديكنز مؤخرا، إن ديكنز كان سيدرك كثيرا من التساؤلات والمشكلات لأنها كانت حاضرة بالفعل في عصره.

وقال ويرنر لهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) إن ديكنز «كتب عن المشكلات المالية والهجرة وضعف التعليم والمسكن غير الملائم – هذه كانت القضايا التي ربما تكون بدت ملائمة لسكان لندن في الوقت الحالي».

ويجد بعض المحللين تشابها بين ديكنز وموقع «تويتر» الإلكتروني، وهو رمز تسارع العالم في الألفية الشابة ولبعض المشكلات الناجمة عنها.

وكتب ديكنز رواياته في شكل حلقات بالمجلات في نشر متدرج للقصص استمر لأشهر ولسنوات.

وعلى عكس بعض زملائه، لم ينتظر ديكنز اكتمال رواياته حتى ينشرها. وبدلا من ذلك طور حبكات درامية طوال فترة نشرها. وساهمت هذه الظروف في أسلوب ديكنز الذي يتميز بالتشويق وخطوط القصة المتوازية.

وأثنى بعض الباحثين على أسلوب ديكنز باعتباره تأسيسا لسرد القصص في الأفلام، مخترعا في الأساس فكرة الأفلام.

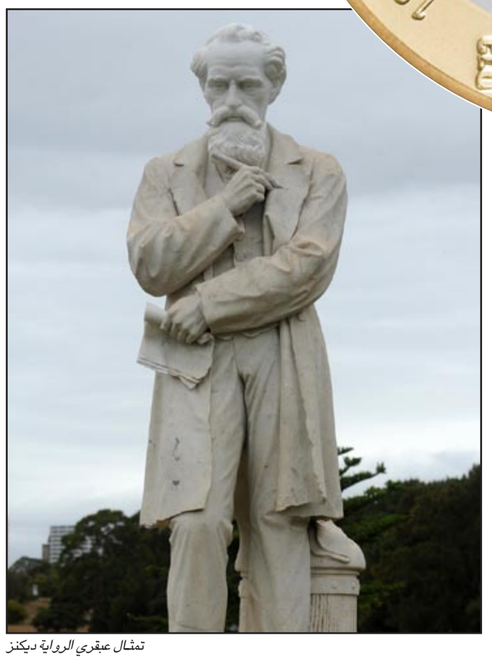

تمثال عبقري الرواية ديكنز

وقال ماثيو ديفيس، خبير «بي بي سي» الذي يلقب ديكنز بـ«سيد القصاصة»، إنه في عصر «تويتر» وأنواع أخرى من كتابة اليوميات المصغرة والتدوين على الإنترنت، يبدو أن نهج ديكنز المتسلسل ملائم تماما.

ولا يزال ديكنز واحدا من أكثر المؤلفين بالإنجليزية الذين يقبل الناس على قراءة أعماله في أنحاء العالم. وأصبح مصطلح «ديكنزية» مرادفا للفقر المدقع.

وحولت أعماله لأفلام سينمائية مئات المرات. وينتشر حاليا في السوق البريطانية عدد من الأعمال المجمعة والنسخ الخاصة والسير الذاتية ومنتجات متعلقة بديكنز خلال المئوية الثانية لميلاده.

وأثنى على ديكنز لواقعيته وحسه الفكاهي وشخصياته الفريدة التي ابتكرها. كما اعترف بتفانيه في مكافحة الفقر وتحسين الأوضاع المعيشية.

ومع هذا، لم يكن ديكنز في الحياة الواقعية مثل الشخصيات الطيبة والمحسنين في القصص الخيالية والذي يقضي يومه في تأليف كتبه. ويقال إنه كان مهووسا بالسيطرة، وقال المعاصرون له إنه كان بخيلا ومغرورا.

وشملت كتب ديكنز بعضا من سمات سيرته الذاتية. واضطر خلال طفولته للعمل لشهور في مصنع لإنتاج الصبغات السوداء بينما كان والده مسجونا بسبب ديونه.

وبعد تعلمه في لندن ومدن حولها، عمل مع محامين، ثم ككاتب اختزال في محكمة مدنية كما عمل كصحافي.

ونشرت أولى قصصه في عام ١٨٣٤.

ونشرت روايته «أوليفر تويست» في مجلة في الفترة من يناير (كانون الثاني) ١٨٣٧ وحتى أبريل (نيسان) ١٨٣٩. وصدم القراء وصف ديكنز للفقر والجريمة في لندن لدرجة أن الحي الفقير الذي دارت فيه أحداث الرواية هدم بالفعل.

ونال ديكنز شهرة كمؤلف وذهب في جولات قراءة في بلدان عدة بينها الولايات المتحدة. وكان قد نال مكانة عامة قبل وفاته في ٩ يونيو (حزيران) ١٨٧٠ تشبه مكانة نجوم السينما في الوقت الحالي، وفقا للخبراء في سيرة ديكنز في متحف فيكتوريا والبرت.

وأثار ضجة في عام ١٨٥٨ عندما انفصل عن زوجته كاثرين التي عاشت معه كزوجة لأكثر من ٢٠ عاما وله منها ١٠ أبناء. وأغرم بالممثلة الشابة إيلين تيرنان، التي يفترض أنه مات في بيتها.

ويرقد رفات ديكنز في كنيسة ويستمنستر بلندن مقابل تمثال تذكاري لبطل الأدب البريطاني الشهير ويليام شكسبير

تسللت الى الذاكرة محطة سانت بانكراس في لندن التي أصبحت في مخيلة الأمة بعد أن تناولها تشارلز ديكنز بكتاباته التي قال عنها عام ١٨٥١ أنها مستنقع من الطين ومكملة للقذارة، وعلى الرغم من القلق الإقتصادي الذي جعلنا نشعر بأننا أقرب الى عصر مسكون بالتناقضات بين الثروة والفقر المدقع، إلا اننا شهدنا إعمارا رائعا لهذه المحطة واصبحت اكثر عصرية في السنوات الأخيرة والملايين يشاهدون التلفزيون ويمكن العثور بسهولة على اليزابيث تايلور أو ميشال فابر والكثير من الروايات المفضلة من القرن التاسع عشر ونماذج خصبة من العهد الفيكتوري تناولت كتبهم واصداراتهم الشاشتين الكبيرة والفضية وخضعت بالوقت نفسه للتحليل الأكاديمي لتشكل الآن حقولا متميزة للدراسة، ومع اننا على أعتاب عام جديد هو ٢٠١٢ تبدو هذه الأنشطة فيه أكثر من أي شيئ آخر ونحن نتهيأ للإحتفال بالذكرى المئوية الثانية لميلاد ديكنز.

ديكنز الاول والاخير

دينـــة بيـــرش ×

ترجمة: أحمد فاضل

والبرنامج المخطط له يبدو ضخما وسوف يصل الى ما هو أبعد من عالم الأدب ليشمل إقامة المعارض والمناقشات والبرامج الوثائقية الاذاعية والتلفزيونية والعروض المسرحية الكبرى الجديدة، هذا التنوع يعكس مدى محبتنا لديكنز الرجل الذي كان محاميا ومراسلا برلمانيا وصحفي وفنان، وعندما كان شابا كان كثير التفكير في صياغة حياته المهنية بفاعلية كبيرة، كما و أنه امضى شهورا كثيرة بائسا يعمل وهو طفل في مستودع للدهانات شديد الظلمة وهذه الفترة بالذات اصبحت الأكثر شهرة في طفولته أو ربما في حياته التي قادها بعزيمة لا تلين لتحقيق النجاح، وكان طوال سنوات شهرته كروائي استثنائيا حتى وهو يشغل رئيس تحرير مجلات عديدة كان قد أصدرها ومسرحيات أعدها للهواة، مع سفره الدائم للإلتقاء بجموع غفيرة من الناس للإستماع له لما كان يطلعهم من قراءات، وكتابة أرقام مهولة من الرسائل والخطب وتنظيم ودعم لحملات الإصلاح الاجتماعي.

كان نشاط ديكنز ملحوظا نظرا لما يتمتع به من عقلية وجسدية جعلت منه رمزا ثقافيا له حضور دائم في كل المحافل الأدبية التي كانت تعقد في لندن، فتشارلز ديكنز يعني انكلترا انه واحد من عدد قليل من الكتاب الذين يقفون جنبا الى جنب مع تشوسر وشكسبير وربما صمويل جونسون، أما الذين جاءوا لتمثيل عصره كروبرت دوغلاس الذي نراه متحمسا لسنوات ديكنز المبكرة، وكلير توماليز التي انخرطت بعمق في سيرته الذاتية لتأخذ التباساته الابداعية باعتبارها نقطة هامة في حياته أو علامة على عظمته لأنه لايوجد شيئ تقريبا يمكن للمرء أن يقول عنه عكس ما يتصوره، دوغلاس مع ما يقوله أن طاقة ديكنز وتململه يجعله موضوعا غير مرتب ومتناقضا أحيانا، لكنه هو ما أعطى لكتاباته قوتها الدائمة، مع ان هذه التناقضات اصبحت جزءا لايتجزأ من الثقافة الفيكتورية كما يقول دوغلاس خصوصا على توترات الطبقة الإجتماعية التي هزت الحياة الحضرية في إنكلترا والتي نشأت في مرحلة انتقلت فيها من الهرمية التي كانت ثابتة الى حد كبير واصبحت ذات قدرة على المنافسة حيث تم تحديد الوضع حسب الدخل والإحترام.

تشارلز ديكنز عاش هذه المرحلة التي اتسمت بالمأساوية حيث وجد جده يعمل خادما لدى عائلة كرو الثرية، أما جدته فكانت تعمل نادلة في أحد البارات واضطروا في النهاية الى الفرار من البلاد عام ١٨١٠ عندما اكتشف أن الأب ديكنز قد سرق أموالا من مكتب الدفع البحري الذي كان يعمل فيه والذي بريء قائلا لعائلته أنه سرق للإرتقاء الى مكانة اجتماعية تليق بهم، وبين الظروف غير المستقرة الى مرحلة الطفولة والجوع لاحقا نراه يشق طريقه في الحياة حيث اضطر للعمل والقراءة معا بعد تركه المدرسة لكنه وفي خلال سنوات قليلة امتلك قاعدة متينة في اللغة الإنكليزية والرياضيات وبعد عودته للدراسة حصل في السنة الأخيرة على جائزة

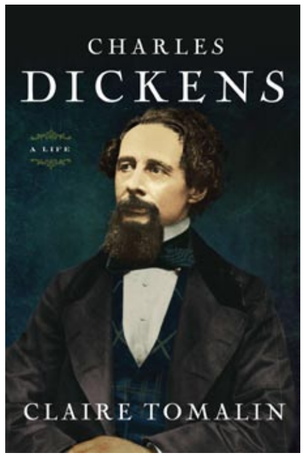

اللاتينية فقد كان حظه جيدا وهو أمر مفروغ منه طالما سعى بعزيمة وتصميم.

حدد ديكنز مساراته في تعلم القراءة والكتابة بالرجوع الى الماضي من خلال ما كان يقرأه للكتب الموجودة في مكتبة والده بدلا من تعليمه الرسمي، فهو لم ينس أبدا القصص التي قرأها وهو صبي لتوم جونز، مول فلاندرز، روبنسون كروزو، ألف ليلة وليلة، حكايات الجن، دون كيشوت، النائب ويكفيلد، وقد لعبت هذه الشخصيات بما عاشته من تناقضات دورا رئيسا في أغلب ما كتبه من روايات لكنه بداية ساهم بكتابة مجلة مكتوبة بخط اليد وزعها بين أصدقائه الصغار وقد استمتع ديكنز بها خاصة بعد تكييفها بقصصه الأولى التي اختارها بعناية، وبعد أن جعل من نفسه رجلا غنيا بعد كل ذلك التشرد وتجارب الربح والخسارة، ديكنز لم يفقد تعاطفه مع الفقراء ولا احتقاره للثراء فكان أول من كتب عن الفقر والأطفال الذين يتعرضون للإساءة والخادمات والعاهرات والكادحات المعنفات، هذه الأصناف من البشر بدت من اكثر الشعارات السلبية التي تشكوا المعاناة بقسوة في قصصه كما كانت حياته، وأيا كان اختلاط الغضب والحزن والضحك في سطورها فإنه كان يستهلك بشغف انصهارها داخل نفسه الواثقة بكل ما حملته من عنف وكوميديا وشفقة ومشاعر وتآمر بتوصيفات قوية وبلغظيات اخترعها لايمكن وقفها، وكان يقف بتناغم عجيب مع مخاوفه من بعض قرائه، لكنه عرف كيف يتغلب على استيائهم مع الوقت حينما يطلعون على أعماله القادمة وأنهم سيدفعون به الى الشهرة والثروة بسرعة وهذا ما حدث فعلا بعد نشره أعماله خلال اعوام ١٨٣٦ – ١٨٣٧ وحتى نهاية حياته.

في سيرة حياته الفذة التي تناولتها الكاتبة كلير توماليز تقدم كشفا مذهلا وتفسيرات معقولة لحياة ديكنز تساعدنا على فهمها لأنها تسير بمحاذاة أحاسيسنا ونحن نعيش قرننا الـ٢١ متناولة فيها صفحات مجهولة من عديد مشاكله المتجذرة خاصة في علاقاته التي اتسمت بالحدة مع النساء، وقد لاحظ النقاد من خلال علاقاته غير المستقرة تلك انه لاتوجد إمرأة يمكن لها أن تكون سببا في سعادته بسبب معاناته في طفولته التي دفعته الى ان يتوق لأن تكون المرأة تحت سيطرته بالكامل، فالصفات التي كان يطلبها والتي تقرب بسببها من النساء أن يكونن تحت تبعيته وطاعته زادت في نفس الوقت من محنته خاصة عند سقوطه في حب الممثلة إلين ما أسفر عن نهاية حياته المشتركة مع زوجته كاترين غارث وإخراجها من بيت الأسرة الذي خيمت عليه سنوات مظلمة وصفتها إبنته كاتي بالعاصفة وقالت عنه أنه لم يعد يهتم بأحد منا ولاشيئ يمكن أن يتجاوز هذا البؤس والتعاسة حيث بلغت معاناة كاترين المنفية من بيتها أن منعت من رؤية أطفالها التسعة ومعظمهم فشلوا في تحقيق الكثير من حياتهم بسبب إهمال ديكنز لهم مما تسبب سلوكه هذا لهم بالقدر الكبير من الألم، وهو تذكير غير مريح لسلوك ديكنز مع أن توماس كارليل كان يثني عليه ويقول عنه: "إنه رجل صادق في كل شبر فيه "، ومع تدهور صحته في السنوات الأخيرة إلا أنه كان قادرا في كثير من الأحيان على العمل ولم يتوقف أبدا عنه واستطاع أن يقمع كل ما مر به من صعوبات على نحو مدهش.

توماليز في سيرتها عن ديكنز كتبت أن سنواته الأخيرة كانت مثقلة وحساسة والسيرة بحد ذاتها لاتشبه أي سيرة أخرى كتبت عنه، لكنها تحرص على عدم تقديمها بأنها قصة مأساة وهزيمة مع أنها حفلت بتناقضات داخلية مدمرة وتصف لقاؤه في مكان آخر من السيرة بالملكة فيكتوريا أنه أثارها فكريا خاصة في تناوله القضايا الإجتماعية متحدثين معا حتى عن ارتفاع أسعار المواد الغذائية، توماليز خرجت بهذه السيرة ببنية سردية قوية سلطت الضوء مرارا وتكرارا على الدور الداعم له للكثير من الصحفيين والموسيقيين والروائيين والممثلين والرسامين.

× دينة بيرش / استاذة الأدب الإنكليزي بجامعة ليفربول ومحررة لطبعة أوكسفورد الأدبية حتى عام ٢٠١٠ ومؤلفة للعديد من الكتب.

× عن/ ملحق التايمز الأدبي

روائع ديكنز..

الفقراء أبطال في عتمة الظلام

"تأمل النعم التي تمتلكها الآن والتي يمتلك كل إنسان الكثير منها، ولا تفكر في أحزانك الماضية التي لدى كل منا القليل منها".

هذه الكلمات جاءت على لسان أعظم روائي بريطاني وثاني رجل بين كتاب بريطانيا بعد شكسبير وهو الأديب الذي ترك ثروة أدبية وروائية خالدة على مر الزمان، إنه تشارلز ديكنز الذي اتخذ من حياة البؤساء والفقراء والمهمشين عالم خصب لقلمه، نسج أروع الإبداعات الروائية التي تتحدث عن ضرورة تحسين النظام الصحي العام، وتربية الجماهير الفقيرة، ومحو الأمية، إنه الظاهرة الخارقة كما تصفه الروائية الأمريكية جين سميلي.

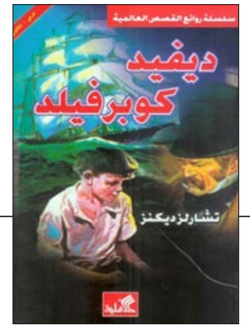

سميرة سلمان

الأديب الإنجليزي الذي تطالعنا في هذا الشهر ذكرى ميلاده عام ١٨١٢ كان يعرف بغرابة أطواره حيث عرف بقوة ملاحظته وسرعة غضبه، وتشدده في تربية أولاده "وكان لديه منهم عشرة"، فكان يقيم البيت ويقعده ويملؤه صياحا وتهديدا إذا ما وقع نظره على قطعة من القرش في غير موضعها، أو أتت إحدى بناته أمرا، أو أهملت شأناً من الشيء ون المنزلية وإن كان طفيفا.

و من أبرز الدلائل على غرابة أطواره أنه كان يغادر منزله وسط الظلام، ويتوه في شوارع لندن قاطعا ١٥ أو ٢٠ ميلاً في الليلة الواحدة دون أن يكون له أي مأرب من هذه النزهة الليلية!.

ففي إحدى المآدب التي أقيمت له في الولايات المتحدة الأمريكية دسّ يده في جيبه وتناول مشطاً راح يمشط به شعره ولحيته وشاربيه، على مرأى من الحاضرين المشدوهين المتقزّزين.

ولد ديكنز وترعرع في عائلة كبيرة وفقيرة فكان الابن الثاني من بين ثمانية إخوة..

كان والد تشارلز ديكنز كاتب حسابات أما جده وجدته لأبيه فكانا خادمين، أحب والده العظمة والوجاهة وقد كان مسرفا وأحواله المادية صعبة وقد أدى ذلك إلى عذاب الابن في صغره ولكن هذا العذاب هو الذي خلق منه العبقري الذي خلده التاريخ وكان سببا في أن يصبح كاتبا كبيرا.

رقي والده وأصبح موظفا في الميناء الحكومي وقد كانت في منزل الأسرة خادمتان وكانت احداهما تدعى "ماري" تقص على تشارلز قصصا مرعبة تجعله يعاني من الكوابيس، وكان والده يجعله يقف فوق مائدة المطبخ ليغني الأغاني الضاحكة للضيوف.

في سن السابعة حتى العاشرة كان تشارلز يقرأ القصص بنهم كبير فقد كان يختفي في غرفة صغيرة ويقرأ قصص "دون كيشوت" وروبنسون كروزو وغيرها وكانت جولاته في شوارع لندن المدرسة الحقيقية التي تخرج منها ليصبح كاتبا عبقريا.

ساءت الأمور وكثرت الديون على آل ديكنز وبيع الأثاث وجاء الدور على كتب تشارلز وقصصه مما جعله يحس بتعاسة ما بعدها تعاسة وأرسله أبواه ليعمل في مصنع للأدهنة الروائح مما أثر في نفسه تأثيرا لم يتمح بمرور السنين ويقول عن هذه الفترة: "لقد تأثرت طبيعتي كلها من الحزن، والتحقير الذين لحقاني نتيجة للأحداث التي مرت بي حتى أنني الآن وأنا شهير وسعيد أنسى أحيانا في أحلامي، أنني رجل ولي زوجة وأطفال وأعود بخيالي إلى تلك الأيام البائسة من حياتي".

ديكنز كان سيصير متشردا

لقد أصيب هو وعائلته بكارثة إذ قبض رجال الشرطة على والده لعدم قدرته على سداد ديونه وأرسل إلى السجن المخصص للمدينين العاجزين عن السداد. أمضى ديكنز الأب ٣ أشهر في السجن ويصف تشارلز حالته في هذه الفترة "كنت أعلم أنني أتجول في الشوارع وأنا جائع وأنه لولا رحمة الله لأصبحت لصا أو متشردا صغيرا".

في سن الخامسة عشرة بدأ العمل صبيا في مكتب أحد المحامين وعمل بعد ذلك في احدى المحاكم وقد ساعده ذلك في إتقان النواحي القانونية في قصصه، و في نفس الوقت كان يعمل مراسلاً لأحدى الجرائد المحلية الصغيرة لقاء اجر متواضع أيضاً، و لكنه لما يهتم بالأجر فلقد تفانى في هذا العمل الصحفي الذي كان بمثابة أولى خطواته لتحقيق أحلامه فقد كان بمثابة تمرين له على حرفة الأدب، و لقد أتاح له هذا العمل الصحفي أن يتأمل أحوال الناس على مختلف مستوياتهم الاجتماعية و الأخلاقية فخرج بالعديد من أفاقه و مدارکه الأدبية و الحياتية، كما أغرم فن التمثيل فكان يكثر من الذهاب إلى المسارح وقاعات الموسيقى.

نصفه الآخر

أحب ديكنز وهو في الثامنة عشرة من العمر ولكن التي احبها هجرته بعدما وعدته بالزواج لمعارضة اهلها ولقد تزوج من كاثرين هوجارت ولم يكن الزواج عن حب ولكنه أثمر عشرة أطفال في خلال ١٥ سنة.

وكشفت رسائل الروائي الانجليزي تشارلز ديكنز التي حررها ونشرها جراهام ستوري عن قصة الحب التي خاضها ديكنز في المراحل الاخيرة من حياته، والتي تسببت في انفصاله عن زوجته كاثرين، وهي قصة حبه العنيف للممثلة الشابة نيللي تيرنان التي لم تجلب له السعادة بل جلبت له القلق والانزعاج بعد ان اصبحت حياته الشخصية نهباً لفضول الاخرين على اثر نشر رسائل خاصة به وبحبه الاخير جعله يفقد الثقة في الرسائل كوسيلة تواصل بين الاصدقاء والأحبة.

أثناء قيام صديقه فورستر بكتابة سيرته الذاتية، طلب منه ديكنز ان يكون اكثر تعاطفاً معه في كتابه، وان يلقي الضوء على حرمانه العاطفي في طفولته والذي كان السبب في عدم اغداقه بمشاعره على الأخرين وفي التعاسة التي لازمته طوال حياته والتي كانت وراء محاولته اغراء الممثلة الشابة الصغيرة نيللي بالمال حتى تبادله حباً بحب.

قال عنها:

– القانون مغفل اذا كان يظن أنه يرغم المرأة على عمل شيء لا تريده

– المرأة أساس المدنية والحضارة والعمران وإن لم يعترف بذلك الرجال، ولذلك دع الرجل يقول ما يشاء ولتفعل المرأة ما تشاء.

– بعض الرجال يحبون المال، وبعضهم يحبون المجد، أما النساء فهن عند الرجال أغلى من المجد، وأثمن من المال.

– المراة الجميلة تطرب لشروق الشمس

حياته الأدبية

تقول جين سميلي مؤلفة كتاب "قصة حياة تشارلز ديكنز" أنه بدأ يلمع اديبا عام ١٨٣٥ اي وهو في الثالثة والعشرين من العمر فقد نشر عندئذ روايتين بعنوان "بدايات بوز" و"مغامرات السيد بيكويك". وبما انه كان يحب المسرح كثيرا فإنه تعود على قراءة نصوصه علنياً امام الجمهور وظل مواظباً على هذه العادة حتى موته.

ولم تكن الحياة العامة لتشارلز ديكنز بأقل أهمية من إبداعه الروائي أو الأدبي فقد كان ناشراً، وداعماً للفكرة الديمقراطية، ومنظراً للرأسمالية والحداثة، وحريصاً على المصلحة العامة، كما دافع عن الطبقات الشعبية الفقيرة والأشخاص المهمشين والشخصيات الفردية الشاذة عن الخط العام.

وتضيف: لرواياته الواقعية جداً أهمية تاريخية بالإضافة إلى أهميتها الفنية ومن يريد أن يطلع على الحياة الإنجليزية في القرن التاسع عشر فليقرأ روايات تشارلز ديكنز.

في عام ١٨٣٦ حيث كان عمره أربعا وعشرين سنة فقط نشر كتابه الأول بعنوان "حكايات بوز" او "اسكيتشات بوز" وذلك في جزئين وهي عبارة عن حكايات او وقائع حصلت لبوز في حياته اليومية والواقع ان بوز ليس الا الاسم المقنع لتشارلز ديكنز نفسه وقد أسعدت هذه الحكايات الجمهور المثقف كثيراً. وكانت تنشر في الصحف على حلقات.

وعندما وجد لأول مرة اسمه مطبوعاً في الجرائد كاد يجن من الفرح. واخذ ينشر بعدئذ مغامرات بيكويك التي اعجبت كل انجلترا وكانت السبب في شهرته.

إبداعات لا تزال حية بيننا

عرف ديكنز عندئذ بضع سنوات شديدة الخصوبة من حيث الكتابة والابداع وراحت حياته العائلية تستقر. فتوالت رواياته حيث نشر روايته "أوليفر تويست"، "حياة ومغامرات نيقولا نيكلبي"، "دافيد كوبرفيلد" وراح ديكنز عندئذ ينخرط في الصحافة السياسية، والكتابات المسرحية، وكتب الرحلات وحكايات الميلاد للأطفال، ورحلة بين أبطال أعماله الرائدة.

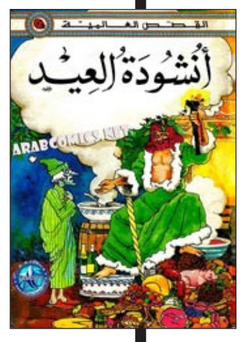

ترنيمة عيد الميلاد

تعد الشخصيات الرئيسة في قصة "ترنيمة عيد الميلاد" ابن عزيز سكروج، وعائلة كراتشيت وتايني تيم وشبح مارلى وأرواح عيد الميلاد الثلاث. والقصة تصور بطريقة مسرحية تحول ابن عزيز من عجوز متذمر شحيح الى شخص كريم دافئ القلب.

ودخلت كلمة "سكروج" منذ ذلك الحين في اللغة الإنجليزية كمصطلح يصف البخيل. فسكروج يعتبر عيد الميلاد "هراء"، ويرفض أن يعتبره من الأعياد.

وفي أمسية من أمسيات عيد الميلاد يحلم بزيارة شبح شريكه المتوفي جاكوب الذي حذر سكروج بأن يغير من طريقته في الحياة. وتظهر ثلاث أرواح تمثل عيد الميلاد الماضى والحاضر والمستقبل، ويقدمون له سلسلة من الرؤى التي تجعل سكروج يدرك أن وجوده كئيب وشحيح، وكيف أنه جعل حياته بائسة جدا.

وكانت هذه القصة هى القصة الأولى في سلسلة حكايات أعياد الميلاد التي نشرها ديكنز فيما بين عامى ١٨٤٣ – ١٨٤٨ ، يليها: رنين الأجراس، والحظ الطيب، ومعركة الحياة، والرجل الممسوس.

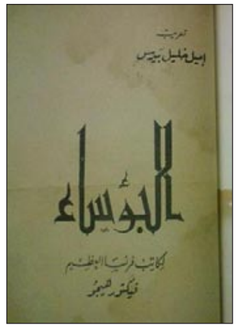

قصة مدينتين

في عام ١٨٥٩ نشر ديكنز "قصة مدينتين" اي قصة باريس ولندن وقد اعترف فيما بعد بأنه كتبها تحت تأثير الفيلسوف الانجليزي توماس كارلايل ويبدو ان كلتا المدينتين كانتا عزيزتين على قلب ديكنز ولكن معرفته بهما لم تكن متساوية فلندن اقرب اليه بكثير يضاف الى ذلك انه كان يخشى الثورة الفرنسية واعمال العنف التي حدثت في مرحلتها الثانية ولذلك فإن روايته كانت تهدف ضمنياً الى تحذير الانجليز من القيام بثورة كهذه.

يفتتح ديكنز "قصة مدينتين" بعبارة من تحمله، وينكسر في الشارع، ويتدافع الناس لشربه قبل أن تمتصه الأرض، وفي هذه الأثناء يغمس أحدهم يده في الوحل النبيذي ويكتب على الحائط كلمة "دماء"، كأنه يتنبأ بما ستؤول إليه الأمور في فرنسا.

في القصة الكثير من التفاصيل المدهشة، والشخصيات المرسومة بدقة، وهي ذات حبكة مثيرة مليئة بالمفاجآت، يطرح ديكنز في قصته – بحسب النقاد – أهمية التضحية، حيث يضحي الثوار بكل غال وثمين في سبيل الحرية التي يدركون صعوبتها، والثمن الضخم الذي سيدفعونه من دمائهم من أجلها.

كما يرى ديكنز أن الثورة تميل حتماً إلى القمع والعنف، فهو رغم دعمه للقضية التي استوجبت الثورة إلا أنه يشير إلى ما يرتكبه الثوار من شرور.

من الرواية نقرأ:

" باريس.. حيث داست عجلات العربة الفخمة..التي كان يستقلها الماركيز ايفرموند.. على طفل صغير فقتلته.. لقد كانت العربة منطلقة بأقصى سرعة في شوارع باريس..وحواريها الضيقة المملوءه بالرجال والنساء والاطفال.. من ابناء الشعب الفرنسي الفقير البائس.. الذين يبدون جميعا كالعبيد امام النبلاء في فرنسا..

توقفت عربة الماركيز ايفرموند قليلا.. بعد ان مات الطفل المسكين.. الذي حمله ابوه بين يديه وهو يبكى بكاء مرا.. لم يهتم له الماركيز الذي اخرج كيس نقوده.. والقى بقطعة ذهبية على الارض كتعويض عن مقتل الطفل المسكين.. وانطلقت العربة بعد ذلك خارجة من باريس.. واتجهت الى الريف حيث وصلت الى المنطقة التي يقع فيها قصر الماركيز.. ايفرموند.. مارة بقرية صغيرة.. يعيش فيها عدد قليل من البؤساء الذين يعانون من دفع الضرائب الفادحة.. التي تفرضها عليهم الدولة والكنيسة..

وكان احد هؤلاء البؤساء هو عامل اصلاح الطرق.. الذي شاهد رجلا غريبا كان متعلقا بسلسلة اسفل عربة الماركيز.. واخبر الماركيز بذلك.. وطلب الماركيز ايفرموند من وكيله مسيو جابيل.. ان يحاول القبض على هذا الرجل..

واخيرا دخل الماركيز الى قصره.. وقال للخدم انه يتوقع وصول ابن اخيه من لندن الى القصر.. وعرف من الخدم انه لم يصل بعد

وبينما كان الماركيز يتناول طعام عشائه.. وصل ابن اخيه.. لقد كان هو نفس الشخص الذي يعيش في لندن باسم تشارلز دارني.. بينما اسمه الحقيقي هو تشارلس سانت ايفرموند.. وهو نبيل ينتمي الى تلك العائلة الفرنسية.. التي يرأسها الماركيز.. وكان من الواضح ان الماركيز.. وابن اخيه الذي ترك كل امواله.. واملاكه في فرنسا كانا على غير وفاق.. وكان الشاب دارنى رافضا تماما تلك الغطرسة التي يتمتع بها نبلاء فرنسا.. فترك فرنسا وعمل في انجلترا كمدرس للغة الفرنسية "

وفي النهاية نقرأ:

" وفي يوم ما قال المستر لوري..ان الاحوال قد ساءت جدا في فرنسا.. وان معظم الملاك والنبلاء الفرنسيين.. اخذوا يحولون اموالهم الى انجلترا.. هربا من حالة الغليان التي اصبحت موشكة على الانفجار..

بل لقد حدث الانفجار بالفعل في حى سانت انطوان.. وخرج الشعب مسلحا بكل ما وصلت اليه ايدى الناس.. من كل انواع السلاح.. واندفعوا تحت قيادة المسيو ديفارج صوب سجن الباستيل.. وهاجموه واشعلوا فيه النيران واطلقوا سراح المسجونين.. وقبضوا على جميع ضباط السجن وقتلوا مديره.. وطلب المسيو ديفارج من احد الضباط الاسرى.. ان يريه الزنزانة مائة وخمسة البرج الشمالى.. وهى الزنزانة التي كان الدكتور مانيت مسجونا فيها.. وقام هو ورفاقه بتفتيش الزنزانة.. واحرقوا محتوياتها ثم خرجوا الى حيث انطلق الشعب بادئا الثورة الفرنسية.. واخذوا يحطمون كل شيء بلا رحمة ولا شفقة..

وانتقلت اخبار الثورة من باريس الى المدن الفرنسية الصغيرة.. حيث اشتعلت الثورة في كل مكان.. وفي القرية التي يقع فيها قصر الماركيز ايفرموند.. تجمع الشعب واشعل النار في القصر.. وخصوصا المسيو جابيل الذي كان يعمل وكيلا ومحصلا للضرائب لصالح عائلة الماركيز.. والذي استطاع ان ينجو من الموت والشنق بأعجوبة "!

أوقات عصيبة

يدعو دكينز في هذه الرواية إلى تحسين وضع العمال المزري، ويذكر كتاب سيرة تشارلز ديكنز انه في عام ١٨٥٤ حدث إضراب في مدينة بريستون الصناعية بشمال انجلترا، فقطع ديكنز، بفضوله النهم المعروف، كل الطريق من لندن الى هناك ليرى ما الذي كان يجري وفي وقت لاحق كتب هذه الرواية وسمى المدينة كوكتاون كانت مدينة مداخن طويلة تنتشر منها أعمدة دخان لا متناهية بخطوط افعوانية، كانت فيها قناة قذرة، ونهر يجري ماؤه بلون ارجواني، وبرائحة تبعث على الغثيان، واكوام هائلة من البنايات المليئة بالنوافذ حيث الضوضاء والقعقعة طيلة اليوم، وحيث مكبس الآلة البخارية يصعد ويهبط بحركة روتينية مثل رأس فيل في حالة كآبة وجنون.

وربما تكون هذه القطعة هي الأكثر شهرة في الأدب الإنجليزي حول تأثيرات الثورة الصناعية وتشويهها الإنسان.

ومن الرواية نقرأ في بدايتها: في مدينة كوكتاون بانجلترا، وفي حجرة الدرس وهي حجرة مربعة الشكل قبيحة المنظر نجلس عشرون من التلاميذ والتلميذات صامتين يستمعون للسيد "جراد جرايند" وهو يحدث معلمهم قائلا

– أريد حقائق مادية علم هؤلاء الأولاد والبنات الحقائق العلمية فقط ياسيدي لقد ربيت أولادي على الحقائق وأريدك أن تربي هؤلاء الأطفال على الحقائق فلا شيء انفع لهم من الحقائق..

هكذا كان يتحدث السيد "جراد جرينج" رجل الأعمال المعروف ومالك هذه المدرسة الصغيرة بينما وقف إلي جانبه شاب أنيق

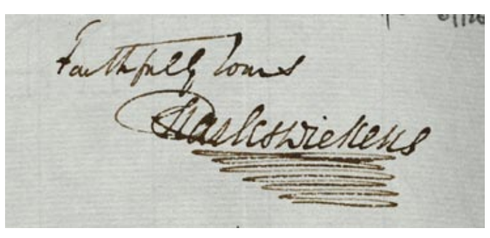

◄

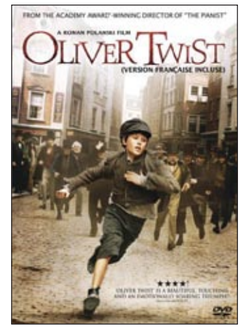

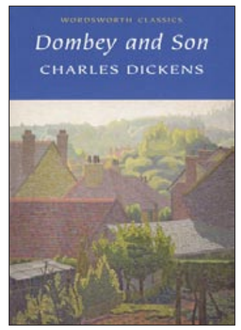

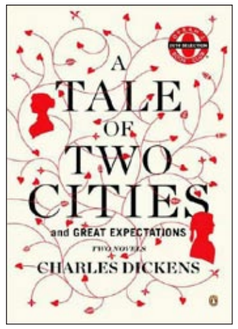

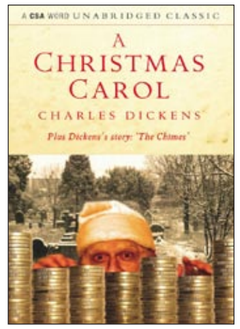

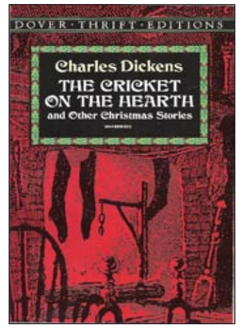

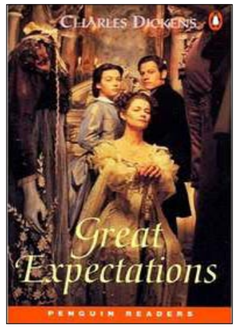

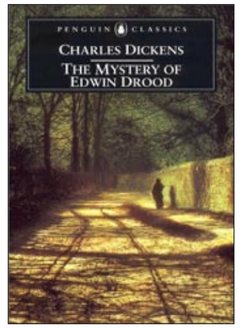

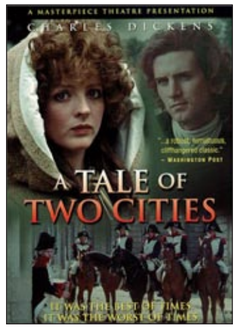

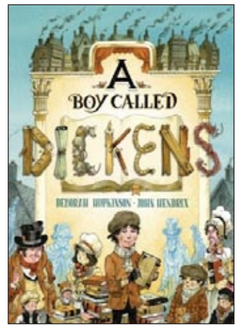

كانت البنت رقم ٢٠ بنتا جميلة لها عينان سوداوان جميلتان وشعر أسود فاحم وعندما أشار إليها السيد جراد جريند وأمرها بالوقوف وقفت وقد اكتسى وجهها بحمرة شديدة وانحنت تحية واحتراما وأجابت على سؤال السيد جراد جريند قائلة:

اسمي سيسي جوب ياسيدي!

فقال: أن "سيسي" هذا ليس اسما..لابد أن اسمك هو سيسيليا.

فقالت البنت وهي لا تزال على انحنائها محمرة الوجه

ان أبي يناديني "سيسي" ياسيدي.

فقال لها السيد جراد جرايند في حزم قاطع: إذن فهو مخطئ..قولي له أنه يجب عليه ألا يناديك بهذا الإسم ثانية..فاسمك هو "سيسيليا جوب".

أوليفر تويست

تعد قصة أوليفر تويست نموذجا فريدا من فن تشارلز ديكنز الروائي، كتب تشارلز هذه القصة عام ١٨٣٨م، وهي تعد من روائع الأدب العالمي،إنها قصة كلاسيكية: ترجمت إلى جميع لغات العالم، وتحولت إلى فيلم سينمائي ومسلسل تلفزيوني، ولا تزال تدرس في المدارس حتى اليوم.

وتدور القصة حول طفل يسمى أوليفر تويست، ولد في ملجأ للفقراء، حيث انتشرت هذه الملاجئ في إنجلترا في تلك الأيام بموجب قانون "إسعاف الفقراء الجديد" الذي صدر عام ١٨٣٤م، وكان هذا القانون موضع انتقاد وشجب بالغ، كما كانت هذه الملاجئ مثالا للقسوة والإهمال والفساد الإداري والاستغلال الخادع للدين، حيث كانت تُدار من قِبَلِ رجال لهم ارتباط بالكنيسة.

ولد أوليفر من أم مجهولة لجأت إلى الملجأ وماتت من عمل وخدمة ولن يشذ بطل قصتنا هذه عن ذلك النظام فسوف يعود بعد سنوات إلى الملجأ الذي ولد فيه ليقوم بالعمل الذي يطلب منه لقاء ما يقتات به من كسيرات الخبز أو فتات الطعام.

هبط "أوليفر تويست" إلى هذه الدنيا وهو يبكي ويصيح ولو عرف في ساعة مولده أنه جاء إلي هذا العالم يتيما فقيرا وأنه سيعيش فيه فريسة العذاب والجوع وعرضة لنهر والضرب يزدريه الناس ويضنون عليه بالعطف والحنان لو عرف في ساعة مولده ذلك كله زاد من بكائه وصياحه.

الأمال الكبيرة

في ظل العطاء والحس الإنساني تنمو آمال "بيب" الكبار وهي الآمال التي قضت عليه الأقدار مكابدة ألوان العذاب في حياته فقد نشأ يتيماً وقاسى مرارة اليتم لترمي به ظروفه في سجن لم يرحمه سجانوه، إذ كابد فيه ألوانا من التعذيب.

"وتشارلز ديكنز" في هذه الرائعة يطعم أحداثه بنكهة الأمل والتفاؤل بأنه ما زال في هذه الحياة متسع لآمال كبار تنمو بفضل أخرين موجودة بداخلهم الإنسانية بأجلى صفاتها، وهم لا شك مازال لهم وجود في هذا العالم.

يقولون ان غاندي عندما قيل له:

" أنت رجل طموح جداً ، مستر غاندي!

".I hope not :قال

"بيب" بطل الرواية صبى ماتت أمه، فتولت أخته المتزوجة تربيته ورعايته. ونظراً لأن سنه صغيرا، فكانت تعامله على انه ابنها، وليس اخوها. وكذلك "جو الحداد" زوج اخته....الذي كان يحبه اكثر من اى شيء اخر، حتى الدفاع وتلقى الضربات عنه، من زوجته العصبية المزاج دائماً.

ومن الطبيعي ، ان يبدأ "بيب" حياته المهنية كصبي جو الحداد ، فالرجل يحبه ويعطف عليه ، ناهيك عن تلقى الضربات بدلا منه.... فأين يجد رب عمل افضل من هذا؟

وحتى هذه اللحظة ، كان حلم "جو" الوحيد، ان يكون حداداً كبيراً...

لكن كل شيء سينقلب من أقصى اليمين الى اقصى اليسار، عندما يدعى (بيب) لقضاء يوم في منزل سيدة عجوز، وحيدة وغنية في مقابل ، لعب واكل...واموال أيضا.

هناك رأى لأول مرة "ستلا" ، وهناك أيضاً شعر لأول مرة بالنقص. وسرعان ما تمنى ، واحس بأماله الكبرى.

لكن ، هل سينتقلب أماله الكبرى لتؤذي أقرب الناس اليه؟

هل ستكون طوق "الحنان والأمان والحب" لكل من عرفه و أحبه.

أم تكون لعنة، تصيبه وتصيب كل من يمسه.

يقولون أيضاً: الاحلام قد تصبح كوابيس.....عندما تتجسد.

فهل تصبح الآمال الكبرى كوابيس؟

ديفيد كوبرفيلد

المجتمع الإنجليزي

تعتبر رواية "ديفيد كوبر فيلد" واحدة من أشهر رواياته، وأجملها حيث يرى بعض الكتاب أنها تقريباً قصة حياته!. حيث أنه عرف عنه نشيء ته الفقيرة، واجباره على ترك المدرسة في سن مبكر. وقد أنعكست هذه النشأة بالطبع، على رواية ديفيد كوبر فيلد.

يقول ديكنز: "من بين كتبي كلها ، أحب هذا العمل أكثر من غيره" في هذه القصة يصور فيها حياته الخاصة منذ الطفولة وحتى الشباب والنضج والشهرة إنها عبارة عن سيرة ذاتية وفي هذه الرواية نجد حكاية طفولته البائسة وكيفية اشتغاله كعامل في مصنع ينتج دهان الأحذية والشموع والرائحة الكريهة التي كان يتحملها على مضض وكذلك الاذلال والفقر ثم يتحدث ايضاً عن بداياته الصحفية في البرلمان وقصة حبه الخائب لفتاة جميلة رفضته.

ومن الرواية نقرأ:

كيف كان مولدي؟؟..اسمي دافيد كوبر فيلد.. وهأنذا اكتب لكم قصه حياتي ولدت في "بلاندرن ستون". وقد مات ابي قبل مولدي بفتره قصيره وفي احدى الأمسيات، كانت أمي جالسه قرب نار المدفأه وكانت حزينه على مصيرها ومصير طفلها اليتيم البائس.

ولمحت امي ميس بيتسي وهي تسير خارج سور الحديقه، وكانت ميس بيتسي تسير متمهله تجاه باب البيت وبدلا من تدق الجرس دست انفها لتنظر الى داخل البيت من خلال النافذه

وميس بيتسي هي عمه ابي، ولذلك فكانت تعتبر بالنسبه الى عمتي الكبرى، وكان اسمها الحقيقي ميس بيتسي تروتوود.

وكانت تعيش مع خادم واحد في كوخ متواضع جوار البحر، وكانت قد تزوجت من قبل ولكن زوجها كان رجلا سيئا لذلك فقد طردته

وكانت عمتي على علاقه طيبه مع أبي ولكنها غضبت عليه حين تزوج امي، وكانت عمتي تدعوها دائما ب "اللعبه الغبيه" ولهذا السبب تشاجرت مع ابي ولم تلتق به بعد ذلك مطلقا.

وعندما رات امي ميس بيتسي تطل من خارج النافذه قامت مسرعه وفتحت باب البيت لتستقبلها

ألست انت ميسز كوبر فيلد....؟

فقالت امي:

نعم.. انا هي... تفضلي بالدخول.

ودخت ميس بيتسي ، وجلست السيدتان معا ثم بدات امي في البكاء فاستاءت ميس بيتسي وقالت لامي

– اوه.. اوه.. لا تفعلي ذلك!

ولكن امي استمرت في البكاء وعندئذ وضعت ميس بيتسي يديها برفق حول وجه امي وقالت لها برفق:

– يبدو انك مازلتي طفله صغيره.. يجب ان تتناولي بعض الشاي... ماإسم البنت..؟!

فقالت امي:

– لا ادري ان كنت حاملة في ذكر ام انثى..

– اقصد البنت الخادمه التي تعمل عندك عندك...

آه.. خادمتي..؟ اسمها بيجوتي.

فقامت ميس بيتسي باستدعاء الخادمه ، وطلبت منها احضار بعض الشاي ، ثم التفتت الى امي وقالت لها:

ـــ نعود للحديث عن الجنين الذي مازلت تحملينه.. اني ارغب ان يكون انثى.. ولابد ان يكون انثى.. وانا اطلب منك ان تسميه "بيتسي تروتوود كوبرفيلد" واعدك بان اكون صديقة لها.. وعلى فكره ، هل تعرفين شيئا عن الطبخ وامساك الحسابات والاشراف على اداره المنزل..؟

فقالت امي:

لا اعرف كثيرا عن ذلك.. ولكني ارغب في تعلم هذه الاشياء

ثم شرعت امي في البكاء مره اخرى... فقالت عمتي:

ـــ كفي عن البكاء حتى لا تمرضي وحتى لا تتاثر بمرضك الطفله اللتي ستلديها.

وعندما احضرت الخادمه بيجوتي الشاي... لاحظت ان امي متعبه، فذهبت على الفور لاحضار الطبيب. وبمجرد وصول الطبيب وكان اسمه مستر شيليب ، صعد على الفور الى غرفه امي

ومرت عدة ساعات الى ان ظهر الطبيب مره اخرى نازلا على السلم، فاسرعت اليه عمتي وسالته في لهفه.

– يادكتور.. كيف حالها؟؟

فقال الطبيب:

ـــ ميسز كوبر فيلد بحاله جيده..

ـــ ولكن اسال عن حال المولوده...

وعندئذ قال الطبيب:

اه.... لقد ولدت ذكرا!

ولم تنطق عمتي بكلمه واحده. ولكنها هبت واقفه واسرعت بالخروج من البيت... ولم تعد اليه بعد ذلك ابدا.... وهذا كان مولدي... انا دافيد كوبر فيلد

وفاته

توفي تشارلز ديكنز وهو لم يتعد الثامنة والخمسين من عمره، وكان الشيء الذي يميز الفترة الاخيرة من حياته "١٨٥٢-١٨٧٠" هو تركيزه على الرواية الاجتماعية وتجديده في عدة مجالات ففي عام ١٨٥٤ أصدر رواية بعنوان "في المصانع" وأما روايته "دوريث الصغيرة" فتدين بعض مظاهر الظلم والقهر في المجتمع الإنجليزي الرأسمالي الصاعد آنذاك إنها تدين المضاربات المصرفية التي تؤدي إلى الربح السريع دون بذل أي جهد يذكر كما تدين سجن الناس بسبب الديون المتراكمة عليهم والتي يعجزون عن دفعها.

وعند وفاته عام ١٨٧٠ بكته انجلترا كلها ومشت وراء جنازته بالملايين ولم يحظ أي كاتب بهذا التشريف الرسمي والشعبي.. وربما كان الروائي الاكثر شعبية في كل تاريخ العالم! وفي وقته كان مشهورا أكثر من أي شخص آخر بل ويرى البعض أن شهرته كانت تعادل شهرة الملكة فيكتوريا ذاتها.

عن/ موقع المعرفة

المتخصص في عالم الكتب

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
عدنان حسين

مدير التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
ديار خالد

التصحيح اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

لا اريد ان يسالني احد: كيف يمكن كتابة روايــة؟

علي حسين

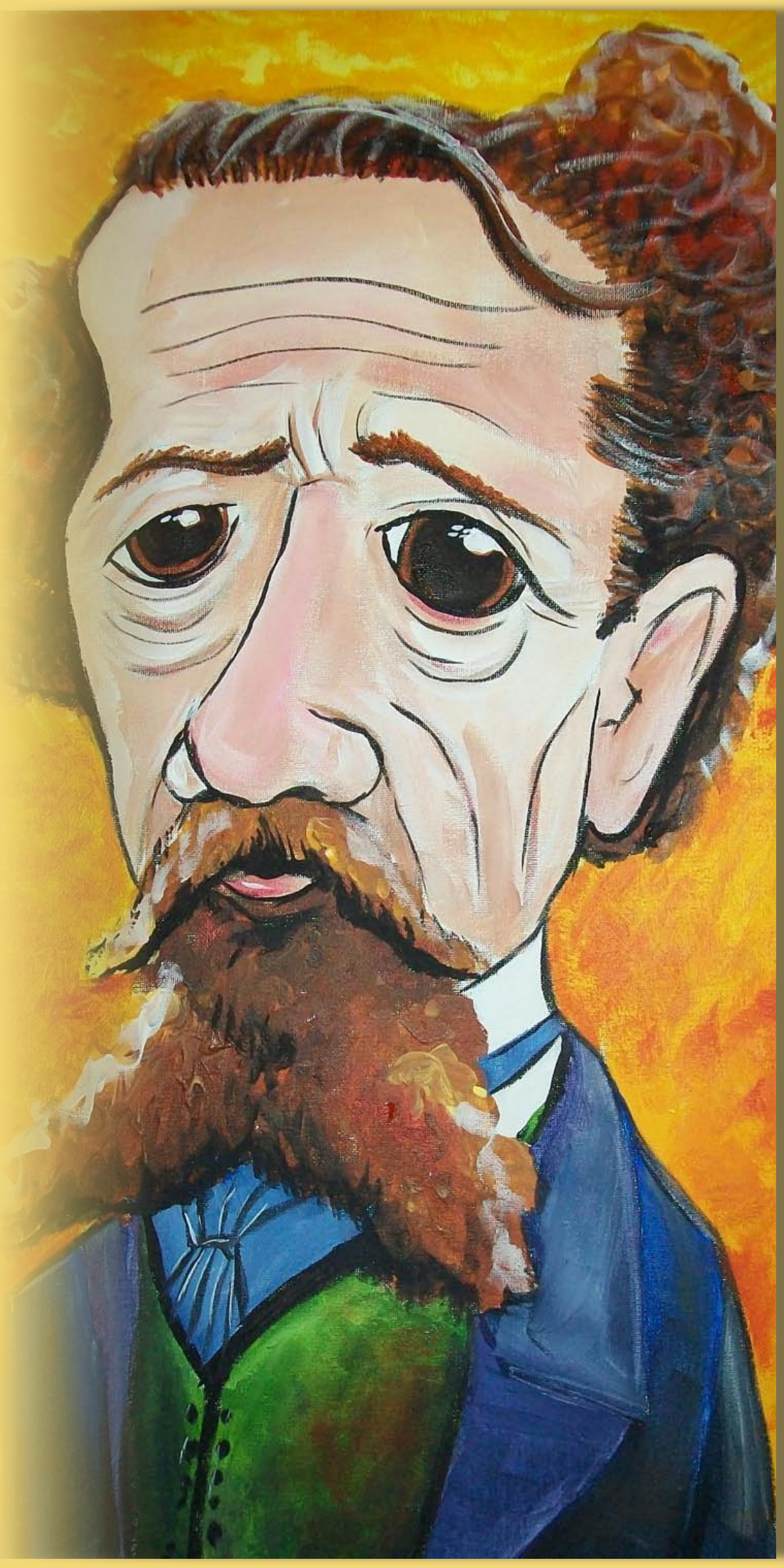

اصيبت الزوجة باضطراب عصبي حين علمت ان زوجها غريب الاطوار قرر ان ينشر على الملا سيرته الذاتية، والتي اراد ان يكشف فيها بؤس طفولته، ويفصح عن تعاسة أيام صباه وشبابه. وبعد الحاح طويل تمكنت من اقناعه بعدم نشرها،. وتراجع الروائي عن نشر سيرته، ولكنه سرعان ما قدمها لنا في واحدة من اجمل رواياته ديفيد كوبر فيلد، التي نشرها عام ١٨٥٠ وصارت احدى اعظم كلاسيكيات الادب.

اسمي ايها السادة هو تشارلز ديكنز اسف فانا شخصيا لا يروقني هذا الاسم لانه سلسلة من كلمات عادية لم استطع قط ان اربطها بنفسي.ولدت في احدى ضواحي لندن الفقيرة وما أزال غير اسف على ذلك.انني كاتب هياب. مهنتي الحقيقية مهنة عاجز، لكنني ارتبك ارتباكا شديدا وانا احاول القيام ببعض الحيل التي اضطر الى ان الوذ بها من جراء عزلة الادب.

على كل حال ان كلا النشاطين يقودان الى الشيء الوحيد الذي اثار اهتمامي منذ ان كنت طفلا: ان يحبني اصدقائي اكثر.. ان كوني كاتبا من الكتاب ليس سوى انجاز استثنائي لانني رديء جدا في الكتابة، وعلي ان اخضع نفسي لانضباط بشع كي انجز كتابة صفحة واحدة.. انني اناضل جسديا مع كل كلمة، لكن الكلمة هي التي تفوز في الغالب).

هكذا يتحدث المعلم ديكنز الى قرائه في اوراق كان يتمنى ان تصبح جزءا من سيرته الذاتية التي قدمها في العديد من رواياته مثبل قصة مدينتين، اوليفر تويست، دوريت الصغيرة، الامال الكبيرة.

وقد قامت هذه الروايات ببناء عالم مدهش وساخر لكنه في معظم الاحيان ينوء بالاسى والالام.

يقول احد كتاب سيرته: "ان ديكنز استطاع بفنه الفائق الروعة ان يظهر للبشرية جمعاء ما يميز البسطاء من البشر"

البسطاء هم المفتاح السحري الذي دخل به ديكنز الى قلوب قرائه بروايات لم يشحب بريقها الأدبي، ولم تخفت تجلياتها الفكرية.. فلاتزال تعانق الزمن الراهن، وتشتبك مع أزماته، وهذا ما يؤكده مؤرخ بريطاني هو ترتسترام هنت. ويشير إلي أن رواية "دوريت الصغيرة" التي نشرها عام ١٨٥٧، وفضح فيها مثالب النظام الرأسمالي، تكشف اسباب أزمة النظام المالي العالمي في سبتمبر ٢٠٠٨.

"دوريت الصغيرة" أثارت انتباه الكاتب البريطاني الكبير "برنارد شو" عندما قرأها، وأطال التأمل في أجوائها، وقال انها من أهم روايات القرن التاسع عشر في انتقادها للرأسمالية.

"دوريت الصغيرة" فصلا اخر من سيرة حياة هذا الروائي. الذي كان هو واسرته يهربون تحت جنح الظلام من مكان الي آخر فرارا من الدائنين واضطر تشارلز للعمل في مصنع وهو في الثانية عشرة من عمره، بينما زجت السلطات بوالده في السجن لتعثره في سداد ديونه. ولم يفلت من مصيدة الفقر والتشرد إلا في نحو العشرين حين ساقته دروب الحياة الى عالم حافل بالخيال ليقدم اولى اعماله الروائية " اوراق بكوك " فيتلقى بسببها رسالة من دار النشر يخبرونه فيها، انه ليس لديه أي مستقبل في كتابة الرواية، مقترحين عليه أن يبحث عن مهنة أخرى.

المهنة الاخرى كانت الاصرار على الكتابة ليقدم في النهاية عالما،، هو مزيج من السيرة الذاتية والخيال الجامح، يتداخلان ويتشابكان في أبعاد مختلفة.

بتواضع الكبار يجيب على سؤال كيف اصبح روائي: "وجدت نفسي ما أزال في مكاني، حتى إنني لم أجد غرابة في اضطراري إلى عض لساني كي لا أسأل من ألتقي به: قل لي يا أخي: كيف يمكن كتابة رواية؟